الذباب في الشعر الجاهلي:
صورة حية

*ليلى توفيق العمري**

ملخص

يدرس البحث تعريف الذباب في اللغة، تعريفاً يبين معناه وجنسه عند اللغويين أنه الطير الأسود الذي يكون في البيوت، يسقط في الإناء والطعام، ويفْصل أجناس الذبان عن غيره من الأجناس التي حسبتْ عليه كالنحل والدبر وبعض أجناس من الزنابير والفراش.

وتتميماً للتعريف فإن البحث يقفنا على اختلاف علماء اللغة والأدب على مفرده وجمعه، اختلافاً يعود إلى احتكامهم إلى القواعد النحوية، أو إلى التطبيق العملي الذي يتعلق ببعض تصرفاته في الحياة، وخلاصة قولهم إن "الذباب" واحد، وجمعه في القلة "أذبة" وفي الكثير "ذبان".

ويجلّي البحث في دراسته للذباب في الشعر الجاهلي تصور العرب لصوته، أنهم استمدوا وصفهم له من الصورة الماثلة في أذهانهم لصوت الشارب الثمل، وقد أثّرت الخمر في نفسه وعلى هيئته؛ فاشتقّوا من هذه الصورة أصواتاً كثيرة للذباب، تبين للباحث في دراسته لها أن الذباب إنما يكثر ويصوت من فرحه وسروره بجمال المكان، وشعوره بدفء المناخ، وهما عاملان أساسيان يدفعان الذباب إلى أن يغنّي في طيرانه غناء هزجاً غَرِداً، وإلى أن يعبر عن فرحه ومرحه – في حالته تلك – بالحركات التي يشكّلها فيه. على أن كثرة الذباب قد تكون مصدر إزعاج لبعض الحيوانات في صخَبه وضجيجه، وفي شدة لسعه لها، مما يضطرها إلى طرده عنها، أو قتْله قتْلاً يشير إلى ضعفه وقلّة حيلته.

الكلمات الدالة: الذباب، صوته، غناؤه، حركته، مرحه، نشاطه، ضعفه.

المقدمة

لقد لفت نظر الباحث الفصل الذي عقده الجاحظ عن "الذباب" في الجانب الذي يتعلّق بغنائه، فأخذ على عاتقه تتبع هذا الجانب - وجوانب أخرى تكشّفت له فيما بعد - في كتب اللغة وفي الشعر الجاهلي، تتبعاً ساعده في رسم الإطار العام للبحث، وفي تقسيمه إلى موضوعات، فكان أول ما ابتدأ الحديث به عن تعريف الذباب في اللغة تعريفاً بين له معناه عند اللغويين، والفصيلة التي ينتمي إليها، وأجناسه التي دلّت عليها أسماؤه، دلالة تميز بها جنس من آخر، إذْ أشار الباحث إلى أن تعريف اللغويين الذباب من حيث هو اسم عام له لا يقتصر على جنس واحد فقط هو: الطير الأسود الذي ينتمي إلى فصيلة الحشرات، والذي يكون في البيوت، يسقط في الإناء والطعام، وإنما يشتمل على أجناس أخرى ذات ألوان متعددة، منها ما هو حمر وزرق وصفْر وخُضر، توصل إليها الباحث وهو يحاول أن يجد تعريفاً آخر للذباب يشمل أجناسه كلها، وصولاً جعله يخْرج من الذبان الأجناس التي أدخلها علماء اللغة والأدب فيه، وهي ليست منه كالنحل والدبر وبعض أجناس من الزنابير والفراش، من الفروق التي تفرق جنساً عن آخر.

وقد كان الحديث عن تعريف الذباب توطئة تمهد للباحث الحديث عن الذباب في الشعر الجاهلي بالأجناس التي رددها الشعراء فيه، ولكنه وجد لزاماً عليه – قبل أن يتحدث في هذا الموضوع – أن يجلّي اختلاف اللغويين في مفرده وجمعه، ويوضح ما استقر في مفهوم العامة فيهما، فذكر اختلافهم في كون "الذباب" واحداً أو في كونه جمعاً، وهم في قولهم إنه جمع اختلفوا في صيغة واحده بين "ذُبابة" و"ذبانة" اللتين خطّأهما بعض علماء اللغة، في أن معنى الأولى ينصرف إلى البقية من الدين ونحوه، وأن الثانية من قول العوام، ومن عرضه لأقوال اللغويين في هذا النوع من الخلاف، ومن نظرتهم إلى الواحد (وهو ذباب) أنه اسم جنس يشمل الذكر والأنثى، أو في كونه مؤنّثاً (وهو ذُبابة) في احتكامهم فيها إلى القواعد النحوية، أو إلى بعض تصرفات الذباب في الحياة،

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية، الزرقاء، الأردن. تاريخ استلام البحث 2005/4/20، وتاريخ قبوله 2006/8/7.

© 2007 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

توصل الباحث إلى أن "الذباب" مفرد، وجمعه في القلة "أذبة"، وفي الكثير "ذبان"، وأن استعمالهم "ذُبابة" لتمييز الأنثى من الذكر، أما "ذبابة" فهي خطأ لا محالة.

فإذا كان الأمر كذلك سهل على الباحث أن يتحدث عن أصوات الذبان وغنائها في الشعر الجاهلي، مبيناً تصور العرب لصوت الذباب من حديثه عن الصورة الماثلة في أذهانهم للشارب الثمل، في أثر الخمر في نفسه وعلى هيئته، فاشتقّوا من هذه الصورة صوراً أخرى حاكوا فيها صوت الذباب وغناءه، في فرحه وسروره بجمال الطبيعة الحية، المتمثّلة في جمال الروض أو الوادي، وقد تبين للباحث أن الذباب يغنّي ويصوت في طيرانه لشعوره بدفء المكان وجماله إذ "يشتد نشاطه حتى تتعالى أصواته"[1]، وهي أصوات كثيرة نوع الشاعر الجاهلي في الحديث عنها تنوعاً يخدمه - أحياناً - في توضيح الصورة التي يصفها في المشبه به، ويشكل الذباب في هذا الطيران بعض الحركات التي تعبر عن حالة الطرب التي وصل إليها بما يتّسق وجمال الطبيعة الحية من حوله، ولكن هذه الصورة المضيئة للذباب تخالفها صورة أخرى وقع عليها الباحث، إذْ تبين له أن كثرة الذباب لا تغني عن ضعفه، وأنها قد تسبب إزعاجاً لبعض الحيوانات في لسعه لها، وفي صخَبه وضجيجه مما يضطرها إلى ذبه عنها، أو قَتْله قَتْلاً يدل على ضعفه وقلّة حيلته.

ويعتمد الباحث في تجلية الموضوعات التي يطرحها على دواوين الشعراء الجاهليين، وكتب الأدب والعلم مثل "الحيوان" للجاحظ، و"المعاني الكبير" لابن قتيبة، و"نهاية الأرب" للنويري، وكتب اللغة مثل "المخصص" لابن سيده، والمعاجم عامة، وهو بهذا الطرح الذي يعالج به بحثه يقدم صورة جديدة للذباب في الشعر الجاهلي، لم يدرسها أحد من قبل – فيما يظن – على هذا النحو.

الذباب في اللغة

1- تعريفه

اختلف اللغويون وعلماء الأدب في تعريف الذباب اختلافاً واضحاً؛ فمنهم من ذهب في تعريفه إلى كونه اسماً عاماً له، ومنهم من وجد في الحديث عن أجناسه تعريفاً آخر له، وهم في حديثهم عن أجناسه اتفقوا على أشياء منها، كما اختلفوا على أشياء أخرى، أما الفريق الأول فكان منهم ابن منظور إذ عرف الذباب تعريفاً عاماً بالنظر إلى الجنس الذي يألف البيوت دون النظر إلى أجناسه[2] الأخرى، وما ينطوي تحت هذه الأجناس من أوصاف شتى له تفرقه مفارق كثيرة عن ذاك التعريف العام؛ فقال[3]: "الذباب [الطير][4] الأسود الذي يكون في البيوت، يسقط في الإناء والطعام"؛ فهو يخصص الذباب – في هذا التعريف – بلون واحد، ويحدد مكانه في موضع ليس غير. وعرف ابن منظور الذباب تعريفاً آخر يدل على أن الذباب من حيث هو لفظ عام يشمل أجناساً أخرى دلالة تخرجه من تلك الحدود الضيقة إلى حدود أوسع منها قليلاً، فقد أضاف النحل إلى الذباب على وجه الخصوص؛ فقال[5]: "والذباب أيضاً النحل"، وأشار جملة من اللغويين الذين تقدموا ابن منظور منهم الزبيدي إلى أن النحل من الذباب، ولكنه لم يذكره صراحة بلفظه؛ فقال[6]: "والذباب... عند العرب اسم واقع على صنوف شتى، كذباب العسل[7]، وذباب الرياض". أما ابن سيده فقد ذكر العبارة السابقة[8] في تعريفه الذباب[9]، التعريف نفسه، وذَيلَه بقوله[10]: "وقد تقدم" أي تقدم قوله في أن النحل ذباب، ولكنه بين في هذا الموضع صنْف الذباب الذي وصفه أنه نَحل؛ فقال[11]: "ويقال للنحل ذُباب الخصب وذُباب الربيع". وأما الفيروزآبادي فإنه ردد ما قاله سابقوه إذْ جعل النحل من الذباب[12].

ويعد الجاحظ أكثر علماء الفريق الثاني – من علماء الأدب القدامى - توسعاً في الحديث عن أجناس الذبان، فقد تحدث عنها في أربعة مواضع حديثاً خالف فيه أصحاب اللغة في شيء، واتفق معهم في شيء آخر في كون النحل من الذباب؛ فقال[13]: "والعرب تجعل الفَراشَ والنحل والزنابير[14] والدبر[15] كلها من الذبان"، وقال في موضع آخر[16]: "والذبان ضروب سوى ما ذكرناه من الفَراش والنحل والزنابير"، ثم ذكر بعد ذلك ضروب الذبان التي هي أصنافه وأنواعه[17]. وأما الموضع الثالث فقد تحدث فيه عن أصناف الذبان التي اصطلح عليها علماء اللغة والأدب أنها من أنواع الذبان؛ فذكر منها الشعراء والقَمع والنعر[18]، وأضاف إليها ما ذكره سابقاً من أجناس الذبان، وذلك في حديثه عن "المغنيات من الحيوان"؛ فقال[19]: "... وأصناف الذبان من الدبر، والنحل، والشعراء، والقَمع، والنعر"، ويحتج لهذه الأجناس في كونها من الذبان بحديث رسول الله (ﷺ) فيقول[20]: "والدليل على أن أجناس النحل والدبر كلها ذبان، ما حدث به... عطية بن سعيد العوفي قال: قال رسول الله (ﷺ): كل ذبابٍ في النار إلاّ النحلة".

ويبدو أن ابن قتيبة قد نقل عن الجاحظ حديثه عن أجناس الذبان في الموضع الأول من كتابه "الحيوان"[21]، وكذلك فعل النويري في حديثه عنها في الموضع الأول من كتابه "نهاية الأرب"[22]. أما حديثه عن أجناس الذبان في الموضع الثاني منه فكان نقلاً صريحاً عن الجاحظ[23]، وهو الحديث الذي اقتبسناه منه، وأشرنا إليه في الموضع الثاني آنفاً.

وتعرض ابن نباتة المصري – وهو من علماء القرن الثامن الهجري – لِما تعرض إليه سابقوه من أجناس الذبان، ولكنه في تعريفه الذبان عين الفصيلة التي ينتمي إليها وهي الحشرات؛ فقال[24]: "الذباب في اللغة يقع على هذا المعروف من الحشرات وعلى النّحل، والزنابير ونحوهما".

فإذا لم ينظر ابن منظور إلى أجناس الذبان الأخرى في تعريفه الذباب – في الموضع الأول - تعريفاً عاماً، يقوم على جنس واحد هو الجنس الذي يكون في البيوت؛ فإن العوام كانوا لا يعتبرون أنواع الذبان الأخرى من الذباب، ويرون أن الجنس الذي يكون في البيوت هو وحده الذي يسمى الذباب، وفي ذلك يقول الزبيدي[25]: "والعوام لا توقع اسم الذباب إلاّ على الجنس الذي يألف البيوت". ولعل هذا المفهوم قد استقر عند هؤلاء جميعاً لشيوع هذا الجنس من ناحية، وكثرته من ناحية أخرى.

وإنما يكثر الذباب إذا دنا أجله؛ ومن الأخبار التي تروى في كثرة الذبان مع قصر أعمارها، أن الجاحظ ذكر أن لذبان البيوت وقت هيج في أكْل الناس وعضهم، وشرب دمائهم، وإنما يحدث ذلك لها عند قُرب أيامها، فإن هلاكها يكون بعد ذلك وشيكاً[26]، ويكون هلاكها – كما قيل – في كل أربعين يوماً[27]. والذباب الذي يكثر على هذا النحو هو الذي مر تعريفه أنه الذباب الأسود، فلعل فورة الذبان السود عند قُرب هلاكها، وتخلّفها خلال فترة قصيرة بالكثرة نفسها جعل علماء اللغة يذهبون – والعوام يعتقدون – في تعريفهم الذباب إلى تغليب هذا الجنس على غيره من الأجناس معنًى ولوناً.

وحسبي أن اتفاق العلماء أو اختلافهم على أجناس الذبان، إنما كان يدور على ثلاثة أجناس هي: النحل والدبر والزنابير؛ فقول من قال إن النحل ذباب إنما أراد احتمالاً واحداً – أو أكثر – من احتمالات أربعة نذهب إليها، فأما الاحتمال الأول فلأن النحل كالذباب يطير، والاحتمال الثاني لأنه يشبهه في صوته: في زجله وطنينه ودندنته، والاحتمال الثالث لأنه يشبهه في بعض ألوانه؛ فقد ذُكر أن من ألوان الذباب غير السود ما هو حمر وزرق وصفْر[28] وخُضر[29] وأطحل[30]، ومن ألوان النحل ما هو غُبر وحمر وسود وصفر[31]. والاحتمال الرابع لأنهم أضافوا الذباب إلى الخصب وإلى الربيع وإلى العسل[32]، وهم يعرفون النحل بأنه هو على هذا النحو. ويظهر أن الشبه قائم بين النحل وبين بعض أنواع الذباب في المكان الذي يطيران فيه، فقد ذكر الجاحظ أن من ضروب الذبان: ذبان الكلأ والرياض[33]، وإنما يكثر الذبان في الأودية لالتفاف عشبها، إذ "لا يكون الذباب إلاّ في واد مخْصبٍ معشبٍ"[34]. وأما النحل فإنه يكون في الروض فيقع على الزهر والثمر والشجر، فيرشف ما في أعماق النور من الحلاوة ليعسل[35]، ومن هنا جاءت إضافتهم الذباب – الذي عنوا به النحل – إلى العسل؛ قال ساعدة بن جؤَية الهذلي يصف أكل النحل الشجر ليعسل به[36]:

منْها جوارس ِللسراة وتأْتري

كربات أمسلة إذا تتَصوب[37]

ومثله قول أبي ذؤيب الهذلي يصف النحل أنها تنتاب المرعى، فتأكل ثم ترجع فتُعسل[38]:

إذا لسعتْه النحلُ لم يرج لسعها

وخَالَفَها في بيت نُوبٍ عوامل[39]

وفي حديث عمر حين سئِل عن خلايا العسل وحمايتها ما يزيد الأمر وضوحاً في إضافة الذباب إلى الخصب أو إلى الربيع؛ قال[40]: "فاحم له... ذلك وإلاّ فإنما هو ذُباب غَيث"؛ قال ابن الأثير في تفسيره[41]: "يريد بالذباب النحلَ، وإضافته إلى الغيث على معنى أن يكون مع المطر حيث كان، ولأنه يعيش بأكل ما ينْبتُه الغيثُ، ومعنى حماية الوادي... أن النحل إنما يرعى أنوار النبات وما رخُص منها ونَعم..."، وهو الأمر الذي ذهبنا إليه في بيان وجه الشبه بين النحل وذبان الكلأ والرياض في المكان الذي يطيران فيه، فإذا كان النحل يرعى أنوار النبات ليعسل، فإن غرض الذباب ما حلا، ولشرهه عليه يقع على كل مائع، سواء كان حلواً أو غيره[42]، ولذلك قالوا في النحل: ذباب العسل.

على أن ما ذكرناه من أوجه الشبه بين الذبان والنحل لا تكفي لأن تقوم دليلاً على قول من قال إن النحلَ ذباب من حيث الجنس، لأن ثمة فروقاً تفرق الذباب عن النحل، ولعل ما جاء في حديث الرسول (ﷺ): "كل ذباب في النار إلاّ النحلة"، وما جاء في الأثر[43]: "الذباب في النار " يشير – إشارة غير مباشر – إلى شيء من هذه الفروق؛ فقد قيل فيه[44]: "كونه في النار ليس بعذاب له، ولكن ليعذب به أهلُ النار بوقُوعه عليهم". ومعنى ذلك أن الذباب يؤذي من يقع عليه[45]، في حين كان النحل أقل الطيور والدواب ضرراً على الناس[46]، ولذلك أفاد الاستثناء في حديث الرسول (ﷺ) معنى النفي أن يكون النحل من أجناس الذبان؛ فكيف يكون منه وهو لا يشترك معه في كثير من صفاته؛ فقد ذكروا أن النحل أنظف أجناس الحيوان يتميز بتنزهه عن الأقذار، وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره، وطاعته لأميره[47]، وعلى عكس ذلك كله الذباب فإنه يقع على العفونات والأقذار والأوساخ، ويقتات منها ويأكل بعض الحشرات[48]، ولا قائد له ولا أمير[49]، والأهم من ذلك أن النحل يعسل[50] متخذاً من رؤوس الجبال بيوتاً له لذلك[51]،

والذباب لا يعسل ولا بيوت له، وهذا ما يؤكد أن النحل ليس من جنس الذبان، وأن ما قيل فيه إنه ذباب العسل لا يخرج عن الإطار الذي ذكرناه.

وكذلك قول من قال: إن الدبر[52] والزنابير من أجناس الذبان، فلعلّه استمد ذلك من اختلاف اللغويين في المعني بكل واحدة منهما على حدة، اختلافاً التبس عليهم فيه كون الزنابير من الدبر أو من الذبان، الأمر الذي جعلهم يذكرون الدبر مع الزنابير في حديثهم عن أجناس الذبان، ولهم في ذلك أقوال؛ فذكر بعضهم أن النحل يقال له: الدبر[53]، أو العكس أن الدبر النحلُ؛ قيل: هو من النحل ما لا يأْري[54]، منهم الأصمعي قال[55]: "الدبر النحل ولا واحد لشيء من هذا"، وقال في موضع آخر[56]: "الدبر والخَشْرم من النحل"، وقد استشهد أبو حنيفة الدينوري في تصداق قول الأصمعي بقول لبيد[57]:

بأَشْهب من أبكارِ مزنِ سحابة

وأَري دبورٍ شَاره النحلَ عاسلُ[58]

وأنشد غيره من اللغويين قول أوس بن حجرعلى المعنى نفسه[59]:

ثَلاثَةُ أبراد جياد وجرجةٌ

وأدكن من أري الدبورِ معسلُ[60]

وذكر آخرون أن الدبر: الزنابير[61]؛ قال أبو حنيفة[62]: "والدبر عند من رأينا من الأعراب الزنابير... وأنكر أن يكون من النحل، والمشهور في الدبر أنها الزنابير"، في حين عمم بعضهم القول فذكر أن الدبر: النحل والزنابير[63].

والذي يبدو لي أن الدبر يشملهما، وقد أشار إلى ذلك إشارة خفية ابن سيده عندما نقل كلام أبي حنيفة عن الأعراب إذ علق عليه فقال[64]: "وجمع الدبر من النحل دبور". ومعنى كلامه أن صنفاً آخر من الدبر غير النحل، قد يكون الزنابير الذي ذكره اللغويون آنفاً، وهذا ما يوضحه أبو حنيفة الدينوري فيما يرويه عن بعض العلماء من أسماء النحل كالدبر وغيره، ولكنه يذكر فيه أن الزنابير نوعان، نوع منه هو الدبر الذي ذكره سابقاً، ونوع آخر لم يحدد الجنس الذي ينتمي إليه؛ فيقول[65]: "... والخَشْرم ذَكر النحل، وحمي الدبر إنما حمته الزنابير، والزنابير لا تكون من النحل فالدبر على هذا هو الجنسان جميعاً". وقد تكون الزنابير التي استثناها أبو حنيفة من النحل الذباب كما ذكر علماء اللغة والأدب[66]؛ وإذن فإن شمول أحد هذه الألفاظ لغيره، وتداخل غيره فيه وفي آخر هو الذي أدى إلى هذا الخلط عند اللغويين، فعاملوه في شموله معاملة الجزء وعدوه من أجناس الذبان.

وأما قول من قال إن الفراش[67] من أجناس الذبان، فلعلّه قال ذلك لأنه وجد شبهاً بين الفراش وأصناف الذباب في أنها – جميعاً - أجهل خلق الله، لأنها تغشى النار من ذوات أنفسها حتى تحترق[68]، وفي أن كلا منها يضرب بها المثل في خفّة طيرانها؛ إذ قيل[69]: "أخَف من فراشة" و"أخَف من يراعة[70]".

ولا تكفي المشابهة بين الطيرين – على هذا النحو – لجعل الفراش من أجناس الذبان، فهما إذا تشابها في أمرين فقد اختلفا في أمرين آخرين هما أكثر إقناعاً لنا في نَفْي أن يكون الفراش من أجناس الذبان؛ فالفراشة – كما ذُكر – أكبر في حجمها من الذباب الضخم[71]، فكيف إذن تكون منه وهي أكبر من أضخمه؟ والأهم من ذلك أن الإنسان إذا أخذ الفراشة بيده صارت بين أصابعه مثل الدقيق، والذباب ليس كذلك.

فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن النحل والدبر وجنس من الزنابير والفراش من أجناس الذبان، فإن المعني بأجناس الذبان التي يمكن أن يشمل البحث بعضها في دراسته مسمياتها الكثيرة، التي تشير إلى أنها الطائر المعروف لدينا من فصيلة الحشرات المجنحة[72]، والتي اتفق علماء اللغة على تسمية الذباب بها، ونصوا في تعريفهم لها أنها ذبان، وهي: القَمة والشذاة والنعرة والشعراء والخَوتع والخشْف واللّقّاع والهمج والزنابير واليراع والحباحب والخازباز

مفرده وجمعه

وكما اختلفوا في تعريف الذباب، وفي الاتفاق على بعض أجناسه؛ فإنهم اختلفوا في كونه واحداً أو أن له واحداً، وهم في اختلافهم على هذا الأخير اختلفوا في صيغة واحده، وبناء على ذلك ميزوا بين الحالتين في كون الواحد اسم جنسٍ يشمل الذكر والأنثى معاً، أو في كونه مؤنثاً.

فأكثر أهل اللغة والنحو وعلماء الأدب والتفسير يذهبون إلى أن الذباب – بغير هاء – واحد الذبان[73]، ويستدلّون على ذلك بقول الله عز وجلّ[74]: (لَن يخْلُقُوا ذُباباً ولو اجتَمعوا له وإن يسلُبهم الذباب شَيئاً لا يستَنْقذُوه منْه)، والذباب إن كان واحداً لفظاً فإنه يؤدي عن جماعة معنًى، وبذلك فُسر قول عنترة[75]:

وخَلا الذباب بِها، فَليس ببارحٍ

وجمعه في القلة أذبة، وفي الكثير ذبان نظير غُراب وأغْربة وغربان[76]؛ قال سيبويه[77]: "ولم يقتصروا على أدنى العدد لأنهم أمنوا التضعيف"، واستشهدوا على أدنى العدد بقول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر[78]:

ضرابةً بالمشْفَرِ الأذبةْ[79]

باستثناء ابن فارس الذي عد "الأذبة" في قول النابغة شاهداً على ما ذكره من أنها جمع الجمع لذباب[80].

على أن جميع من ذكرناهم جمعوا الذباب في أدنى العدد وفي كثيره على أنه الطائر المعروف، ما عدا ابن دريد فإنه ذكر في كتابه "الاشتقاق" أن واحد الذبان ذُباب، وأن ذُباب العين[81] يجمع على أذبة[82].

وحكى سيبويه – مع ذلك – في جمعه عن العرب: "ذُبّ" بالضم وهو نادر[83]؛ قال الزمخشري[84]: "ولم يجيء فُعل من المضاعف ولا المعتلّ اللام وقد شَذّ نحو ذُب في جمع ذُباب"، كما يجمع غُراب غُرباً، وجِراب جرباً[85]، وقال ابن دريد[86]: "وسمعتُ رجلاً جرهمياً يقول: أهلكنا هذا الذب، أي الذباب"، وعلّق ابن منظور عليه مبيناً أثر اللغة التميمية فيه؛ فقال[87]: "فهو مع هذا الإدغام على اللغة التميمية، كما يرجعون إليها، فيما كان ثانيه واواً، نحو خُونٍ ونُورٍ".

وذكر بعضهم أن الواحدة من الذباب: ذُبابة بهاء[88]، وذكر بعضهم الآخر أنه يقال للأنثى ذُبابة[89]، على أن مثل هذا التمييز في هذا اللفظ للأنثى من الذكر ربما هو الذي حدا ببعض العلماء – كالقرطبي – إلى القول إن[90] "الذباب اسم واحد للذكر والأنثى". وهو القول الذي سبقه إليه ابن يعيش إذ جعل الذباب اسماً عاماً للجنس، في حين أنه لم يقل ما قاله غيره من اللغويين إن ذبابة للأنثى على هذا النحو من التمييز في اللفظ، وإنما جعلها للواحد – أي المفرد دون تخصيص – وإن كان ظاهر المثالين اللذين ذكرهما شاهداً على كلامه يدل على هذا التأنيث وذلك التمييز؛ فقال[91]: "يقال ذبابة للواحد وذباب للجنس على حد بطة وبط وحمامة وحمام".

وسواء أرادوا بـ "ذبابة" الواحد من الذباب، أو دلّوا به على الأنثى، فإن بعض العلماء جرى في استعمالهم "ذبابة" على أحد الوجهين، أو الوجهين كليهما على نحو أو آخر بتأويل الخبر[92]. ولعلّهم أرادوا به أكثر ما يكون الأنثى لأنهم أرجعوا ضمير المؤنث على الذباب[93]، ولكن بعضهم عندما أراد التمييز بين الذكر والأنثى أضاف هاء التأنيث إلى الذباب، بحيث فُهم منه أن الذباب مذكّر، وأن الذبابة مؤنث[94].

ولم يكن يقتصر الأمر عندهم على ما ذكروه في شأن الذباب أو الذبابة، ولكنهم عندما تعرضوا لبعض أصناف الذبان، مثل: الشذاة والنعرة والقَمعة وصفوا كلا منها بقولهم[95]: "ذُبابة"، وذلك في سياق تفسير معناها على النحو الذي ذكروها فيه. ولعلّهم عندما أضافوا هاء التأنيث إلى الذباب أرادوا الاتساق مع صيغها كونها الواحد من "الشذَا" و"النعر" و"القَمع"، وهي كما ترى مؤنثات. أما من قال فيها أو في جمعها "ذباب" فلعله كان في ذهنه – أو نظر إلى – صيغة الجمع ليس غير[96].

فإذا كان فريق من علماء الأدب واللغة قد استعملوا – أو تساهلوا في استعمال – ذبابة على النحو الذي رأيناه، فإن عدداً آخر من اللغويين قد خطأ أن يقال في واحد الذباب "ذبابة"؛ فذكر ابن السكيت في تخطئة ذبابة قولاً ألصق في استعمال الناس له على صوابه؛ فقال[97]: "وتقول: وقع في المرق [أو الشراب][98] ذباب ولا تقل ذبابة"، وذكر ابن دريد أن قول الناس ذُبابة خطأ[99]، ووجه الخطأ فيه فيما ذكره الزبيدي عن أبي حاتم أن "العوام يقولون للذباب ذُبابة، وإنما هو بقية من الدين"[100].

وأما ابن منظور فإنه نقل عن أبي زيد أن الواحدة من الذباب "ذُبابة"، وليست "ذبانة"، ولكنه عاد فخطأ "ذبابة"، واللفظ إن كان قد قال به عدد من اللغويين في تعريفهم بعض أصناف "الذبان"، فإن صوابه فيما يذْكُر دون الهاء؛ فيقول[101]: "والذباب أيضاً: النحل ولا يقال ذبابة في شيء من ذلك، إلا أن أبا عبيدة[102] روى عن الأحمر ذُبابة[103]؛ هكذا وقع في كتاب المصنف، رواية أبي علي؛ وأما في رواية علي بن حمزة، فَحكى عن الكسائي: الشذاة ذُبابة بعض الإبل؛ وحكي عن الأحمر أيضاً: النعرة ذُبابةٌ تَسقط على الدواب[104]، وأثبت الهاء فيهما، والصواب ذُباب، وهو واحد".

فإذا كان ذلك كذلك وكان واحد الذبان: ذُباب؛ فإنهم أنكروا أن يقال في واحده: ذبانةٌ[105]، وقد خطأه ابن دريد إذْ جرى في قول الناس كذلك[106]، وتابعه الزبيدي في ذلك؛ فقال[107]: "ويقولون لواحد الذبان ذبانة... والصواب ذُباب".

فإذا استقر في مفهومنا موقف علماء اللغة والنحو والأدب من "ذُبابة" و"ذُباب"، بين مفرد وجمع، أو بين مؤنث ومذكّر، أو بين الواحد والجنس، ومن "ذُباب" و"ذبان" بين مفرد وجمع؛ فإن مرد الخلاف بينهم يعود إلى احتكامهم إلى النظرية أو إلى التطبيق العملي؛ فأما النحاة فإنهم عندما قالوا إن "ذُباباً" واحد "الذبان" فإنهم عادوا في ذلك إلى القواعد النحوية التي أخذها عنهم أكثر علماء اللغة والأدب، ولكن بعض هؤلاء العلماء عندما أراد أن يذكر أخباراً تتصل ببعض تصرفات الذباب في الحياة قال في مؤنثه "ذبابة"، تمييزاً له من مذكّره، في حين التبس على بعضهم معنى "ذبابة" في مفهوم العامة، من المعنى اللغوي لها أنها "البقية من الدين ونحوه"، وقد استعمل مجمع اللغة العربية في القاهرة ذبابة بمعنى الحشرة المجنحة فذكر منها الذبابة المنزلية، وذبابة الخيل، وذبابة الفاكهة، وذبابة اللحم[108]. أما "ذبانة" الواحد من "الذبان" فهي خطأ لا محالة.

الذباب في الشعر الجاهلي

- تصور العرب لصوت الذباب: الصورة الماثلة في أذهانهم

لا شك أن الشعراء في العصر الجاهلي عندما وصفوا

صوت الذباب استمدوا هذا الوصف من الصورة الماثلة في أذهانهم للشارب الثمل، في أثر الخمر في نفسه وعلى هيئته، وهو أمر طبيعي أن يشتقّوا هذا من ذاك لأن الخمر كانت عند العرب من أهم متع الحياة، وقد أغرم بها الشعراء وأداروا حولها شعراً كثيراً[109]، "وقل أن تجد شاعراً في الجاهلية لا يذكر الخمر فهي مظهر من مظاهر الفتوة والشباب والقوة"[110]. والذي استوقفني من هذا الشعر ما أنا بصدد الحديث عنه، وهو صورة شارب الخمر وقد أثرت فيه إلى الحد الذي شعر فيه بالدوار وغشيته النشوة كما يقول الأعشى[111]:

ولَقَد شَرِبْـتُ الراح أُسـ
ـقَى من إنَاء الطهر جـاره[112]
حتـى إذا أخَـذَتْ مـ ـاَ
خذَهـا تَغَشَّتْـي اسـتداره[113]

وإذا سيطرت نشوة الخمر على الشرب فإنهم لا يتمالكون عليهم أنفسهم، لأنها تُميل رؤوسهم كالنائمين، وهذه صورة وصفها الأعشى بقوله[114]:

فَتَرى إبريقَهم مستَرعفـاً
بِشَمولٍ صفقَتْ من ماء شَنْ[115]
غُدوةً حتى يميلُوا أُصـلاً
مثْلَ ما ميلَ بأصحابِ الوسن[116]

وقد وجد أحد الشعراء أن صورة الشارب الثمل الذي يتمايل يميناً وشمالاً، يمكن أن تكون صورة لأشخاص آخرين لا يحتسون الخمر، ولذلك استفاد من صورته في هذه الحالة فشبه به راكب الناقة في حال سرعتها بموضع تخترقه الريح؛ فقال[117]:

كأن راكبها غُصن بمروحة
إذا تَدلتْ به أو شَارب ثَملُ[118]

ووجد الشعراء أن الخمر التي تفعل فعلها في الشرب تطلق ألسنتهم بالغناء والتطريب؛ فقال الشاعر يصف ذلك[119]:

لا أَشْتَهي لَبن البعيرِ، وعنْدنا
عَرِد الزجاجة واكفُ المعصارِ[120]

ويرى الأعشى أن الخمر تحمل شاربها على أن يتغنى ويهتز؛ فيقول[121]:

وطـ ـلاء خُسـرواني إذا
ذَاقَه الشيخُ تَغَنَـى وارجحنْ[122]

إن صورة الشارب الثمل – في حدود ما نريد منها – في رجحانه[123] وغنائه قد توحي للشعراء بأخيلة واسعة، يستفيدون منها في صور أخرى على سبيل التشبيه واستمداد المعاني، غير أنهم كانوا حين يشبهون شيئاً بصورة الشارب الثمل لا تعنيهم صورة المشبه بقدر ما تعنيهم صورة المشبه به – وهم السكارى – وكانوا يلحون عليها إلحاحاً لا يكاد يفارق الكثير من موضوعات شعرهم[124]، ولسنا في موضع يسمح بحصرها والحديث عنها، لأنها تخرجنا عن إطار هذا البحث، ويكفي أقلها ليدل على أكثرها، وهذا يعني أن ما نستشهد به منها على حديثنا ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو وسيلة لبيان فكرة أخرى، والدليل على ذلك ما قاله الشاعر في شأن راكب الناقة، وكذلك أنهم شبهوا تغريد الحمام – وقد سموه غناء – بغناء السكارى كما قال طفيل الغنوي يصف ترف صاحبته[125]:

يغَني الحمام فَوقَها كُل شَارِق
غناء السكارى في عريشٍ مظَلَل[126]

فلو كان قصد الشعراء إظهار صوت الحمام إظهاراً يحتاجون فيه إلى تشبيهه بغناء السكارى، لأفردوه بهذا التشبيه دون غيره من الطيور كالذباب – أو العكس – ورأوا أن غناءه أقرب من غناء الطيور الأخرى إلى غناء الشرب فقصروه عليه، لأن ثمة فرقاً شاسعاً يفرق صوت الحمام عن صوت الذباب، ولكن شعرهم ينطق بخلاف ذلك فقد ورد فيه أنهم شبهوا حمار الوحش وهو يصيح ويصوت من النشاط بشارب يغنّي ويطرب الشرب المتنادمين[127]، وشبهوا أيضاً صوت الذباب بصوت الشارب، تشبيهاً ورد في أمثلة أخرى[128] غيرهما تؤكّد جميعها ما نحن بصدد إثباته أن الصورة القائمة في أذهانهم هي صورة الثمل أينما ذكروه في موضوعاتهم المتنوعة، كقول الحطيئة يصف ناقته[129]:

تُراقب عينَاها إذا تَلَع الضحى
ذُباباً كصوت الشاربِ المتَغَرد[130]

ويبدو أن الحطيئة أراد أن يلفت النظر إلى طبيعة صوت الذباب أنه يشبه – عند ارتفاع الضحى - صوت الشارب الذي يطرب بصوت أبح[131]، وقد جاءت البحة إلى صوته من أثر الخمر[132].

وكذلك قول زهير بن أبي سلْمى يشبه صوت الذباب وطنينه بترنّم السكّران، وقد هاجت الخمر شوقه، فهو يغنّي ولا يفهم عنه[133]:

ومستأْسد، يندى، كأن ذُبابه
أخُو الخَمرِ، هاجتْ حزنَه، فتَذَكرا[134]

واستوحى عنترة من شارب الخمر في هيئته وحركته حين أخذ يغنّي ويطرب في غنائه، صورةً أخرى يشبه بها صورة الذباب وهو يصوت هزجاً[135] غرداً من شدة فرحه بجمال

الروضة، التي أضفى عليها شاعرنا من جمال الطبيعة الحية، وأودع فيها من عناصر اللون والصوت والحركة التي جعلتها أشبه بلوحة تصويرية فنية أثّرت روعتها في الذباب، وأسكره جمالها فراح من سروره يغنّي ويرجع صوته بالغناء كشارب الخمر[136]؛ على نحو ما يقول عنترة في وصفه[137]:

فَتَرى الذباب بها يغَني وحـ ـده

هزِجاً كفعل الشارِبِ المترَنمِ

وتتكرر الصورة السابقة لشارب الخمر في شعر امرىءالقيس ولكن على نحو معكوس في قوله[138]:

فَظَـ ـل يرنـ ـح في غَيطَـ ـلٍ

كما يستَدير الحمار النعر[139]

فقد غلّب امرؤالقيس حركة الشارب على صوته، وجعل الصوت أمراً يترتّب على هذه الحركة، ويفهم منها فهماً أدته صورة تالية أقامها على صورة سابقة مكونة من مشبه ومشبه به، وأدته دلالة الألفاظ في الصورتين معاً، فامرؤالقيس يصف في أحد الأبيات كلب صيد طعنه الثور الوحشي بقرنه، فظل الكلب ينزو[140] لذلك ويستدير استدارةً انتزعها من صورة المرنح[141] من السكْر أنه يتمايل ويستدير ِلما به من دوار[142]، واستدارة الكلب على هذا النحو تشبه استدارة الحمار الذي قد دخلت النعرة[143] في أنفه، تشبيهاً استدعى الشاعر أن يدخل المعاني بعضها في بعض، وأن يكون صورة من صورتين في صدر البيت ليقابل بينها وبين صورة أخرى في عجزه، وكان لجأ إلى ذلك لإيضاح المعاني وتقوية الصورة إيضاحاً استطعنا من خلاله أن نبين مراد الشاعر في الألفاظ، وأن نستدل بها على الصوت المنبثق من شطري البيت، ذلك أنه إذا دخلت النعرة - وهو ذباب ضخم - في أنف الحمار لسعه بإبرة في طرف ذنبه[144]، فيجن الحمار من ذلك ويضرب بنفسه الأرض[145] غير محتمل ألم اللسعة، ولا شك أنه حين يفعل هذا الفعل لا يملك عليه صوته، بل يأخذ في الصياح والتصويت من تلقاء نفسه وهو أمر طبيعي أن يرافق الصوت تلك الحركة في حالة الحمار تلك، لأنه من غير المعقول أن يقْلَق من أثر العض حركةً، في حين يكبت صوته ولا يشركه في التعبير عن ألم هذه اللسعة! وهذا يخالف ما نعرفه عن تصرفات الحمار في مثل هذه الأوضاع.

إن اختيار الشاعر للنعرة في هذا السياق من بين أصناف الذبان اختيار موفق، ليخلق نوعاً من الاتساق والانسجام بين الحمار والنعرة في إضفاء سمة صوتية على البيت، تشكّلت من صوت الحمار الذي يصدر من ألم اللسعة، ومن صوت النعرة الذي دلّ عليه اختيار الشاعر لها، اختياراً جاء من سماعه لنعيرها، ونعيرها سمة فيها ذكرها اللغويون، فقالوا: إن النعرة سميت بذلك لنعيرها، وهو صوتها[146].

ولعل الذي أوحى للشاعر هذا الاختيار صورة الثمل الذي يميد ويتمايل من أثر السكْر، فهو في هذه الحالة قد يهذي[147] بالكلام أو يدندن[148] به، دون أن يشير إلى صوته إشارة صريحة، وإنما دلّ عليه بالصورة المعروفة عن الثمل، وبدلالة اللفظ: "يرنح"، وقوى هذا الصوت ووضحه عندما رسم لنا صورة الكلب الذي أخذ يستدير من ألم الطعنة – يشبه به صورة الثمل – فإنه لا بد له وقد تألم من أن يعبر عن ألمه بالصوت، فنسمع ضغاءه[149] أو عواءه.

وبذلك يستبين لنا – في ضوء ما قدمنا من شواهد – أن الحديث عن الذباب لم يكن حديثاً مقصوداً لذاته، وإنما هو وسيلة لبيان فكرة أخرى وهي وصف الشارب الثمل، الذي استطعنا أن نتبين من حركته وهيئته حركة الذباب وهيئته، وأن نتعرف صوته – من حديثنا عن الصورة العامة للشارب الثمل – معرفة مباشرة أو تأويلية، وربما استنتاجية.

على أننا لا نستطيع أن نسهب في الحديث عن صوت الذباب بالصورة التي تحدثنا عنها، خشية من تداخل المباحث بعضها في بعض، ولذلك سنرجىء الحديث عنها إلى المبحث الثاني؛ لأنه تبين أن للذباب أصواتاً كثيرة، ساعدت بعض الأجواء على إظهار صوته، منها ما ورد في بيت عنترة.

أصوات الذبان وغناؤها: ذبان الكلأ والرياض

ذكر الجاحظ – كما مر – أن من ضروب الذبان: ذبان الكلأ والرياض، دون أن يبين أصناف الذبان التي تكون فيها، أما كتب اللغة فقد ذكرت أصنافاً منها[150]، هي: الأزرق، والخازباز[151]، والخَموش، والخَوتَع، والزنانير، والقَمع، والهمج. ووردت بعضها في الشعر الجاهلي – كما سنتبين – بأسمائها المعروفة لدينا، أما بعضها الآخر فوردت فيه دون أن تسمى تسمية معروفة على هذا النحو، وإنما أشير إليها إشارة عامة بـ "الذباب" أو "الذبان"، وهي في الحالتين ذُكرت بالمكان الذي تكون فيه.

وأضيف الذبان إلى الكلأ والرياض لأنه إنما يكون في الرياض الكثيرة العشب، وإذا كانت كذلك، أَلِفها الذبان وفي أصواتها غُنة، ومنه قيل: روضة غَنّاء[152]، على أن معنى آخر للروضة الغنّاء ذكره اللغويون، فقالوا[153]: هي الروضة التي "تمر الريح[154] فيها غَير صافية الصوت – وزاد ابن فارس ولها غنّة[155] – من كثافة عشْبها والتفافه"، وقيل لها ذلك لأن الروض بجمال طبيعته يستَغْرِد الذباب، فيدعوه "بنَغمته إلى أن يغَني فَيغَرد"؛ كما قال أبو نخيلة[156]:

واستَغْرد الروض الذباب الأزرقا

والحال كذلك يصدق على الكلأ، ذلك أن الذباب لا يكون إلا في واد مخْصبٍ معشبٍ، وإذا كان – الوادي – كذلك قيل له[157]: واد مغن، وذلك إذا أعشَب فكثر ذبابه حتى تسمع لأصواتها غُنة، وهو شبيه بالبحة[158]، وقيل[159]: حتى تسمع لطيرانها غُنة، جعل الوصف له وهو للذباب؛ قال الشاعر[160]:

حتى إذا الوادي أغَن غُنانُه[161]

وإذا كان الذباب يكثر ويصوت في الأماكن الملتفة العشب، فإن صوتها هذا قد يكون نذيراً للدواب للهروب من أذاها إلى الأرض الخلاء، ولذا التفت الشعراء إلى أن الأرض الخلاء لا يمكن للذباب أن يغشى الإبل فيها فيؤذيها، ويعلّل ابن قتيبة ذلك عن أحد الشعراء؛ فيقول[162]: "ليس بها نبات فيكون بها ذباب، وإنما قيل قرية غنّاء لأن الذباب يكثر فيها ويصوت وفي صوته غُنّة".

وقد ذكر العلماء الآلية التي يحدث فيها صوت الذباب، ومن ثَم غناؤه، فقالوا[163]: إن الذباب من ذوات الخراطيم، وخُرطوم الذباب "يده، ومنه يغَني، وفيه يجري الصوت كما يجري الزامر الصوت في القصبة بالنفخ"، وأن طبيعة صوته تكون بكمية الهواء فيه؛ فـ "متى تضاغط الهواء صوت على قدر الضغط، أو على قدر الثّقب"[164].

وعليه فإن من الطبيعي أن تكون أصناف الذبان التي ذكرناها من ذبان الكلأ والرياض من الأصناف التي توصف بالغناء، وقد ذكر الجاحظ في حديثه عن "المغنيات من الحيوان" أصنافاً أخرى غيرها توصف بالغناء نضيفها إليها؛ فقال[165]: "والأجناس التي توصف بالغناء... أصناف الذبان من... الشعراء، والقَمع والنعر"، ونفى أن يكون لذبان الكلاب غناء، ولا لِما يخرج من الباقلاء[166]. أما الشعراء والنعر فلم تذكر كتب اللغة أنهما من ذبان الرياض، وهما كذلك في الشعر الجاهلي وفي غيره[167]. على أنه سيرد في هذا المبحث من ذبان الكلأ والرياض – في الحديث عن أصوات الذبان وغنائها – الأصناف التي ذُكرت في الشعر الجاهلي بأصواتها ذكْراً صريحاً أو ذكْراً عاماً[168]، أما الأصناف التي وصفت منها بالغناء – كالشعراء - ولم ترد في الشعر كذلك فستتضمنها مباحث أخرى.

1- تغريد الذباب

كان ابن مقبل من أوفر الشعراء حظاً في الحديث عن أصوات الذبان في مواضع مختلفة من ديوانه، ولعل حديثه عنها – أحياناً – كان له إيحاء خاص ودلالة معينة في نفسه، فالشاعر كان يعاني من فراق الأحبة ممثلاً في دهماء[169]، التي ما فتىء يحن إليها ويذكرها في شعره، معاناة جعلته يستحضرها في مخيلته فيذكر طيفها الذي طرقه بعد أن شاخ وودع الصبا، إذن فلا بد أن يكون فرحاً برائحة هذا الطيف الذي يذكّره برائحة روضة أصابها الوسمي[170]، وبلغ من فرحه برائحته أن جعل الروضة غناء، تسمع فيها تغريد الذباب، وكأن لسان حاله يقول إنه بلغ من نشوة الذكرى أن أصبح فرحاً، كفرح الذباب بجمال الروضة وإعجابه بها إعجاباً دفعه إلى أن يتغنّى ويطرب في غنائه، وغناء الذباب في الروضة دليل على خصبها ونعمتها؛ فقال[171]:

طَرقَتْ وقد شَحطَ الفُؤاد عن الصبا
وأتى المشيب فَحالَ دون شَبابِي[172]

طَرقَـتْ بِريا روضــة وسميــة
غَـرد بِذابِلـها غناء ذُبـابِ[173]

ويكرر ابن مقبل غناء الذباب في النبات والأرض المعشبة بالظروف التي هيأها لها من المطر والخصب؛ فيقول[174]:

وغَيث مريعٍ لم يجدع نَباتُه
ولَتْه أهالِيلُ السماكين معشبِ[175]

بسرتُ، وغَنّاني الذباب عشيةً
بِذابله، والشمس لمــّا تَغَيبِ[176]

وعلى الأرجح أن غناء الذباب في الشاهد الثاني كان كالأول تغريداً، وإن لم يذكر الشاعر نوع غنائه ذكْراً صريحاً بلفظه، وقد دلّ على تطريب الذباب في غنائه أنه جعله يغني عشية، وهو الوقت الذي يفرغ فيه الإنسان ويطرب لسماع الأغاني، وقد بلغ من تغريد الذباب في النبات أن أصبح النبات يتمايل طرباً، وعبر الشاعر عن هذا المعنى الذي أراده فيه أن وصفه بقوله: "بذابله"، وإلاّ لما جعل الذباب يغنّي بنبات هذه حالته، وكأنه أراد أن يقول: إن النبات ريان من نشوة الطرب التي أحدثها تغريد الذباب فيه فتمايل طرباً، تمايلاً يتفق مع الصورة التي قدم لها في وصفه أن كثرة ارتوائه بمياه الأمطار جعلته ذابلاً، وهو ليس ذابلاً على وجه الحقيقة، وإنما هو ريان بالمياه إلى الحد الذي يجعله يتثنّى أو يتمايل طراوة بما يتسق مع الصورة التي أردناها في الذباب والنبات. ولو كان النبات ذابلاً حقيقة لما قدم له بقوله: "بسرتُ" النبات، أي رعيته غضاً، ولما تحقق الغرض من تغريد الذباب في روضة يفترض أنها جميلة، ولما استبان وجه الشبه بينه وبين النبات في التمايل والاهتزاز طرباً.

ونجد في شعر المثقّب العبدي صورة أخرى لغناء الذباب وتطريبه، فهو يشبه "تغريد الحمام" على أعشاشها في قوله يصف ناقة[177]:

وتَسمع للذبابِ إذا تَغَنى

كتَغْرِيد الحمامِ على الوكُون[178]

وقد تناقل بعض اللغويين بيت المثقّب هذا، ولكن برواية أخرى بينت أن غناء الذباب يشبه "وكْوكة الحمائم"[179]، وأن الوكْوكة هي مفهوم آخر لمعنى التغريد، والرواية هي:

وتَسمَـع للذبابِ إذا تَغَنَّـى

كوكْوكة الحمائمِ في الوكُـون

قال ابن دريد في تفسيره[180]: "سمعت وكْوكة الحمام في الوكون، وهو هديره"، وهديره هو أن يصوت في غير شقْشقَة[181]، أي يرفع صوته بالغناء دون أن يردد صوته في حنجرته[182]، ولا شك أنه يرفعه بتطريب.

وليس في البيت الشاهد إشارة صريحة تدل على أن غناء الذباب كان في إحدى الرياض، ولكن رواية من روى البيت أن تغريد الحمام كان "على الغُصون"[183] وليس "على الوكُون" تدل على أنه كان فيها، ولذلك كان مما فسر به هذا البيت – على الرواية الأولى – ما ذكره الأنباري عن الأصمعي أنه قال[184]: "وقد يجوز أن يكون [الذباب] في خصب فهي [أي الناقة] تسمع صوت الذباب في الرياض"، وقد مر أن الروض يستغرد الذباب، فمن الطبيعي أن يكون غناؤه فيه.

2- جنون الذباب

وقد يبلغ جمال الروض مبلغاً يبهر الذباب ويعجبه إعجاباً يدفعه إلى أن يترنّم[185] في طيرانه ترنّماً كثيراً، بحيث يصح أن نصف من كان في مثل حاله أنه أصيب بالجنون، جنون الجمال الذي يطلق العنان لصوت من فُتن به، ولذلك عندما قال اللغويون إن من معاني "الذباب: الجنون"[186] أنهم ربما لمسوا هذا المعنى الخفي الذي أردناه في جنون الذباب، فهو يصوت في طيرانه مترنّماً فرحاً تصويتاً لا شعورياً، وفي ذلك يقول ابن أحمر يصف كثرة صوت الذباب لخصب المكان في سياق وصفه السحاب[187]:

تَفَقَّـأَ فَوقَـه القَلَـعُ السـواري

وجـنَ الخـازِبازِ بِهِ جنُـونا[188]

3- ترنم الذباب

على أن بعض الشعراء قد يستدل على أصوات الذباب، وهي تطير – في المرعى – فوق النبات تغنّي وتطرب في صوتها مترنمة، بالصوت الذي يسمعه في الصورة الحية الماثلة أمامه، وهي صورة الركب الذين يسيرون في الصحراء، وقد خلا لهم المكان، وأثقلهم السفر، فهم يغنّون ترويحاً عن أنفسهم غناء جماعياً ذا أصوات مختلطة، أقرب إلى الدنْدنة، بحيث تراءى للشاعر وهو يسمع نغمة أصواتهم مترنمين بها بين مد وترجيع، أنه يمكن أن يماثلها ويشابهها نغمة في صورة أخرى مرئية وقع الشاعر عليها، وهو يراقب المرعى وقد اجتمع فيه الذباب مصوتاً مغنياً بالظروف التي هيأها له من جمال المكان، وسقوط السحاب.

والشاعر إذ يرسم صورة للمشبه وصورة للمشبه به قد أضفى الواقعية والحيوية على الصورتين، فكل واحدة منهما تتكون من كائنات حية لها أصوات وحركة ومكان تقيم أو تطير فيه، وأجواء محيطة به كانت – مع المكان – دافعاً أساسياً في إصدار الصوت من الذباب أو من الركب، على أنه ينبغي ألاّ نغفل أهمية وجود الركب في الصحراء بما تتميز به من ارتفاع في الحرارة، في مقابل نزول السحاب، ومن ثَم تكاثف النباتات والأعشاب، وانخفاض المكان، وارتفاع حرارته – كما سيأتي بيانه – أهمية تجعل من المرعى مكاناً مناسباً لانتشار الذباب وتصويته فيه، يقول أبو كبير الهذلي[189]:

في مرتَعِ القُمرِ الأوابِدِ أُسقيتْ

ديم العماء وكُل غَيث مثْجِمِ[190]

وكأن أصواتَ الخَموشِ بجوه

أصواتُ ركْبٍ في ملاً مترَنمِ[191]

4- صهيل الذباب

وقد يوحي تجمع أصوات الذبان للشاعر وهي تطير هزجة في الروض فوق النبات والعشب، أن يشكّل هذا الصوت تشكيلاً يتناسب مع معطيات البيئة المحيطة به من مخلوقات، ومع إحساسه بالزمن إحساساً فرض عليه أن يتوخّى الدقّة في وصف صوت الذباب الوصف المناسب؛ فابن مقْبل يجعل الذبان صواهلَ[192] في العشب، يريد بذلك غُنةَ طيرانها وصوتَه، وهو إذ يجعلها كذلك فإنه أراد أن يبين طبيعة صوتها فيه، فهو صوت يجمع الحدة والبحة في آن، وقد تأتّى هذا الوصف للشاعر من عاملين اثنين عامل الزمن وصوت الحصن؛ فقد جعل الذباب يصوت في الصباح الباكر، وهو الوقت الذي تراءى للشاعر أن صوت الذباب فيه يشبه صهيل الحصن على النحو الذي وصفناه فيه؛ فيقول[193]:

وغَيـث تَبطنْتُ قُريانَـه

إذا رفَـه الوبْـلُ عنْه دجِن[194]

كأن صواهـلَ ذبانـه

قُبيلَ الصباح صهيلُ الحصن[195]

ويتضح صوت الذباب بتشبيهه بصهيل الحصن في بيت ابن مقبل في الرواية التي رواها البكري له، إذ ورد فيها أن هذا الصوت يحدث "بعيد الصلاة"، وفسر البكري الصلاة التي

ذكرها الشاعر بـ: "صلاة الفجر، وهو وقت حركة الطير"[196]، فلا مانع إذن وقد سمع الشاعر صوت الذباب في هذا الوقت أن يشبهه بصوت أقرب الحيوانات إليه وأعزها عليه، يقول البكري في هذه الرواية[197]:

كـأن صوتَــ ــج ذبابـ ــه
بعـد الصلاة صهيـلُ الحصن

5- صدح الذباب

ويبدو أن صوت الذباب يتأثر بدرجة الحرارة بين انخفاض وارتفاع، وأشد ما يكون عليه اشتداد الحر عند ارتفاع النهار، فتذهب البحة من صوته وتبقى الحدة فيه، وكأن صوته في هذه الحالة يحاكي حرارة الجو في الحدة والشدة من ناحية، وصدح[198] الفرس الفحل بين الخيل من ناحية ثانية، وقد تحقّق للشاعر أن يظهر صوت الذباب على هذا النحو أن جعله في روضة بعيدة الوطء[199]؛ يقول ابن مقبل يصف صوت الذباب في الروضة في شدته وكثرته في سياق وصفه الناقة[200]:

تَنَام طَوراً، وأحياناً يؤَرقُها
صوتُ الذبابِ يرشْح النجدة الكَتِنِ[201]

في عازبٍ رغَدٍ صدح الذبابِ به
رأْدَ النهارِ كصدحِ الفَحل في الحصنِ[202]

6- هزج الذباب

وقد يبلغ من تأثير جمال الروض في الذباب أن تمتّع نفسها في هيئة طيرانها، فترسم لها شكلاً من الطيران يتناسب في جماله مع جمال الروض، ويتسق فيه مع المظهر الخارجي للطبيعة، وهي تطير على غصن من غصون نبات العرفَج، طيراناً يؤدى إلى اتساق آخر يجاوب حركة هذه الطبيعة الحية، وهي تصدر أصواتاً مختلفة تتجاوب في نغماتها مع صوت الذباب وهو يغني هزجاً[203]. واختيار الشاعر لهذا النوع من غناء الذباب ربما أراد أن يبين من خلاله أن إعجاب الذباب بجمال الطبيعة جعله يطير طيراناً مسرعاً، وأن طيرانه على هذا النحو جاوب إحساسه فاندفع يغني مسرعاً غناء متتابعاً، تسمعه وكأنه صوت متراكب، وهذا نوع من التطريب؛ وحسبي بالشاعر أنه أراد أن يجرد الذباب من فصيلة الحشرات، عندما أسبغ عليه من الصفة الآدمية إحساسها بالجمال، ومحاكاة هذا الجمال صوتاً وحركة؛ وفي ذلك يقول الشماخ يذكر أصوات الذبان كأنها أهازيج تتناهى إلى الآذان من بين الشجر[204] في سياق الحديث عن الحمار والأُتن[205]:

يكلفُها أن لا تُخَفض جأْشَها
أهازِيج ذبانٍ على غُصنِ عرفَجِ[206]

بعيد مدى التطْريبِ أولُ صوته
سحيلٌ وأعلاه نَشيج المحشْرِجِ[207]

واختار زهير بن أبي سلْمى المواضع الملائمة وهي التي أخصبت بالربيع، ليبين حركة الذباب وكثرة انتشاره فيها، والوقتَ المناسب وهو العشي ليظهر صوته في هزجه، إذ يبدو أن صوت الذباب يشتد، وتقوى حركته في مثل هذا الوقت[208]، بحيث أزعجتْ حركته وصوته حمار الوحش على نحو ما يقول[209]:

أكَلَ الربيع، بها، يفَزع سمعه
بمكانه هزج العشية، أصهب [210]

وذكر عنترة هذا النوع من غناء الذباب في الروض، وبالغ في وصف غنائه فيه، إذ جعله مرتبطاً بضرب آخر من ضروب غناء الذباب في الروض، فذكر أنه كان يغني هزجاً غَرِداً. وقد تهيأ للشاعر من الظروف المحيطة به، وبالذباب في الروض ما جعله يصف غناءه الوصف الحق؛ فكان جمال الطبيعة المتمثل في وصف إحدى الرياض السبب المباشر الذي دفع الذباب إلى أن يغني فيها، فقد تناول الشاعر في وصفه لها نباتها، وأمطارها، وأحسن في تصويرها، وجمال عرضها وكأنها لوحة تصويرية فنّية[211] وفّر لها الشاعر من عناصر الصورة الحية: اللون والصوت والحركة كما يقول في وصفه لها[212]:

أو روضةً أُنُفاً تَضمن نَبتَها
غَيثٌ قليلُ الدمنِ ليس بمعلَمِ[213]

جادتْ عليها كُل عينٍ ثَرة
فتَركْن كُل حديقَة كالدرهمِ[214]

سحاً وتَسكاباً فَكُل عشية
يجري عليها الماء لم يتَصرمِ[215]

وكان غناؤه فيه غناء متتابع الصوت يدارك صوته فيه لسرعة غنائه، وهذا يعني أنه كان يواصل الغناء في الروض دون توقف، وكأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة لا يكون فيها هزجاً، مما يدل على طربه من ناحية، وسروره من ناحية أخرى، ولكن الشاعر لم يكتف في تصوير مشاعره في هاتين الناحيتين بأن جعل غناءه هزجاً فقط، وإنما جعله يترنّم فيه فيمد صوته ويرجعه بينه وبين نفسه قليلاً قليلاً[216]، ومد الصوت في الغناء هو نوع آخر من التطريب كالتغريد. وقد ساعد الشاعر على إيضاح غناء الذباب وإبرازه على هذا النحو أنه جعله يغنّي في الروض وحده، بحيث فُهم من قوله هذا إن السرور والطرب قد بلغا من التأثير في الذباب أن

غنى غناء لا مثيل له، غطّى على غناء الطيور الأخرى في الروض، فلا يسمع فيه إلا غناؤه، ولذلك وجد الشاعر أن التعبير المناسب عن غناء الذباب في حالته تلك أن يصفه بأنه يغنّي وحده. أو أن السرور قد أثّر فيه وحده فتغنّى دون سائر الطيور الأخرى، وكأن الذباب في هذه الحالة إنسان مرهف الحس في مقابل الطيور الأخرى، تجاوبت مشاعره مع جمال الروض فتغنّى لذلك وحده؛ وفي ذلك يقول محمد سعيد مولوي معلّقاً على قدرة عنترة على تصوير جمال الروض وتشخيصه الذباب إن عنترة "يعتمد في تصوير جمال هذه الروضة الذي يفوق الوصف على الذباب الهزج الغرد ويضفي على هذا الذباب صفات الإنسان فيشخصه ويجعله من سروره في غنائه كالسكران الثمل الذي يتبع الصوت إثر الصوت"[217].

وساعده على إيضاحه إيضاً تلك الصورة الماثلة في أذهان الشعراء التي ألمحنا إليها سابقاً، وهي صورة الشارب الثمل الذي يترنّم في غنائه، إذ أراد عنترة من إدراجها في السياق أن يشبه غناء الذباب بغنائه[218]؛ فقال في ذلك يصف الروض والذباب فيه[219]:

فَتَرى الذباب بها يغَني وحده
هزِجاً كفعل الشّـَارِبِ المترَنمِ[220]

غَرِداً يسن ذراعه بِذراعه
فعلَ المكب على الزناد الأجذَمِ[221]

ويتضح غناء الذباب في الروض على نحو أفضل في رواية من روى صدر البيت الأول:

وخَلا الذباب بها، فلَيس ببارحٍ[222]

إذ قال ابن الأنباري في معناه أنه[223]: "قد خلا هذا المكان له، فليس فيه شيء يزاحمه ولا يفزعه، فهو يصوت في رياضه"، وذلك أوضح لصوته، وأبرز لغنائه، فهو يغنّي ويستمع لغنائه، فيمد عندئذ صوته ويرجعه[224] حتى يصير إلى حالة من الطرب لا يملك حيالها أن يفارق الروض، فيقيم فيه لا يبرحه.

وقد لفتت نظر عنترة حركةُ ذراعيه في التعبير عن فرحه، والتجاوب مع صوته، إذْ شبهه حين وقع في هذه الروضة فحك إحدى ذراعيه (يديه) بالأخرى - كأنه يقدح - برجلٍ مقطوع الكفّين (اليدين)، يقدح النار بعودين[225] أو زنْدين فلا تقتدح، فيستمر في قدحه لا يفتر[226]، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك، وقد اختار الشاعر الأجذَم في مقابل الذباب ليحقّق غرضه من التشبيه صورة وحركة في أقرب صورة ملموسة إلينا، فضلاً عن أنها مرئية، وهي فعلُ الأقطع المكب على الزناد[227]؛ فهو إذا أراد أن يوري زناداً فإنه "يمده بين ذراعيه إذ لم يكن له كفّان يمره بينهما"[228]، وفعل الأقطع وهو قدح النار على هذا النحو فسرته رواية من روى البيت الثاني "قدح المكب"[229]، ولذلك كانت هذه الرواية أجود في بيان فعل الأقطع على وجه الدقّة.

والشيء نفسه يقال في رواية عنترة – وغيره – للبيت الثاني "يسن"[230]، فهي أنسب – من حيث الشكل العام – في وصف حركة الذباب من "يحك" في رواية من روى "يحك ذراعه بِذراعه"[231]؛ لأن ذراعي الذباب دقيقتان، وقد أورد عنترة هذه الرواية – في صدر البيت الثاني – في سياق الحديث عن الذباب، لذلك كان إيراده لها فيه من باب التناسب الوصفي للذباب، إذ إنها تحقّق تقابلاً وصفياً بين حركتين (في يسن، وفعل المكب) في صورتهما العامة أي الشكل العام لهما، أما "يحك" فهي أنسب في وصف فعل الأجذَم لِغلَظ يديه عن يدي الذباب، وهي أدقّ في أداء المعنى المطلوب في السياق كله من "يسن"، لأن غرض الشاعر من قوله في الذباب: "يحك ذراعه بذراعه" أنه يمر إحداهما على الأخرى[232]، أي اصطكاكهما بحيث حك إحداهما الأخرى[233]، وليس سنّهما بمعنى تحديدهما وصقلهما، لأن معنى ذلك أن يجعل لهما سنّاً كسن القلم[234]، وهو ما لم يرده الشاعر، ويؤكّد ذلك أن الشاعر فسر المعنى الذي أراده في حركة الذباب على وجه التشبيه بفعل الأقطع المكب على الزناد، ولذلك كانت روايته البيت "يسن" أنسب في وصف الصورة العامة لحركة الذباب، ورواية غيره له "يحك" أنسب في أداء المعنى الدقيق – في السياق - لهذه الحركة.

7- طنين الذباب[235]

وقد لفت نظر بعض الشعراء أن الأثر الذي يحدثه جمال الروض، أو الوادي في الذباب من الفرح والسرور، فيطير بين الأعشاب والأشجار مغنّياً أو مصوتاً إنما يكتمل هذا الأثر بملاءمة عوامل الطقس للحالة التي يكثر فيها الذباب، ومن ثَم يشتد فيها صوته، وبملاءمة هذه العوامل لطبيعة المكان؛ فالشاعر إذا أراد أن يضفي صفة الجمال على الوادي في اعشيشابه واخضراره لا بد له أن يهيأ للوادي من العوامل المناخية ما يكون السبب في ذلك؛ فيجود عليه بالمطر الخَرفي[236] الذي يكون وراء تكاثف الأشجار وإحاطتها به إحاطة أدت إلى أن يعم الدفء فيه، علاوة على انخفاضه عما حوله انخفاضاً كان عاملاً أساسياً في ارتفاع حرارته.

واختيار الشاعر لمطر الخريف الذي يقصد به مطر القَيظ إنما ليهيأ للذباب جواً دافئاً من ناحية – إضافة إلى ما ذكرناه من عوامل تساعد على دفئه – ومكاناً خصباً، ومن ثَم جميلاً

من ناحية ثانية، وهما ما يحتاج إليهما الذباب ليكون فرحاً مسروراً، فيكثر حينئذ، وإنما يكثر الذباب في الصيف والحر[237]، ويطن، ويكون طنينه أصواتاً مرتفعة مختلطة، يدل على ذلك أن الجاحظ ذكر أن العامة "كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد الطنين الملح في ذلك، الجهير الصوت، الذي تسميه العوام: أمير الذبان، فكانوا يحتالون في صرفه وطرده [وقتله]، إذا أكربهم بكثرة طنينه وزجله[238] وهماهمه[239] فإنه لا يفتر[240]"[241]، وفي هذا الطنين الشديد الصوت يقول الأعشى يصف ظبياً يرتع في واد هذه صفته، ويطن فيه الذباب الرمادي اللون، بين الأيك المتشابك الأغصان[242]:

فيهن مخْروفُ النواصف مسـ
ـ ـروقُ البغَام شادن أكْحلْ[243]
تُخْرِجه إلى الكناسِ إذا الـ
ـ ـتَج ذُباب الأيكة الأطْحلْ[244]

ويخص علماء اللغة القَمع[245] من ذبان العشْب[246] بالذكْر أنه يكثر في الصيف والحر[247]، بحيث تكون كثرته فيه مصدر إزعاج للحيوانات الأخرى في طنينه المختلط الأصوات، وفي شدة لسعه لها[248]، فقدذكر ابن السكّيت أن القمع "ذباب يركب الإبل والظباء إذا اشتد الحر"[249]، الأمر الذي يضطرها إلى أن تذبه عنها، وقد وصف أوس بن حجر هذه الحركة في الظباء وهي تحرك رؤوسها لتطرد القمع عنها، مع أن الله خصها بمزنة في غير وقت المطر في الحر، والذباب لم يخفّ ولم يذهب، والذباب إذ يفعل ذلك إنما يفعله من شدة سروره بجمال المكان، وإحساسه بدفئه؛ يقول[250]:

ألم تَر أن اللهَ أنْزلَ مزنَةً
وعفْر الظباء في الكناسِ تَقَمع[251]

وتتكرر هذه الصورة بكل ظروفها في صورة الحمار النعر، وهي الصورة التي أومأنا إليها سابقاً في شعر امرىءالقيس، والحمار النعر الذي آذته النعرة في أنفه، إذ لا يضير هذا النعر إلا الحمر[252]، والنعر ضرب من القَمع[253]، ونستدل من شعر ابن مقبل أنه يكون في الرياض، ويكثر فيها زمن الخصب، وأنه لا يكثر ولا يصوت إلا في ارتفاع النهار واشتداد الحر. وقد سبق أن ذكرنا أن أشد ما يمر على الذباب اشتداد الحر عند ارتفاع النهار، فيرتفع صوته ويختلط بعضه ببعض وكأن صوته – في هذه الحالة – في حدته وشدته يحاكي حرارة الجو في ارتفاعها واشتدادها، وقد عرض ابن مقبل هذه الصورة وهو يصف قطيعاً من حمر الوحش الذي آذته النعرة في سياق وصفه الفرس، وكانت عرضت النعرة له وهو يرعى المراعي بمكان عازب النبت، يفْزع فيه الفؤاد من اجتماع أصوات النعر، وقد دلّ الشاعر على ارتفاع أصوات النعر واختلاطها بأن عمم القول في وصفها؛ فقال: "أصوات من النعر"، ولعلّ في دلالة اسمها على صوتها ما يشير إلى ذلك[254]. ودلّ على وضوحها حتى يعرف أن تلك أصوات الذباب بأن جعلها تقع على العير في مكان بعيد خالٍ يوحي بالسكون إلا من أصوات النعر، وربط انتشارها واجتماع أصواتها بعوامل الطقس التي هيأت لها تلك الحالة، لتتسق مع الخطوط العامة في اللوحة الفنية التي رسمها الشاعر للمرعى؛ فقال[255]:

قَد قُدتُ لِلْوحشِ أبغي بعض غرتها
حتى نُبِذْتُ بِعيرِ العانَة النعرِ[256]
والعير ينْفَح في المكْنان قَد كتنَتْ
منْه جحافلُه، والعضرسِ الثجرِ[257]
يعازبِ النبت، يرتاع الفُؤاد لَه،
رأْد النهارِ، لأصوات من النعرِ[258]

على أن طنين الذباب لم يرد في الشعر الجاهلي بصريح هذا اللفظ - فيما وقعت عليه من شعر – إلا في شعر حضرمي بن عامر؛ قال[259]:

ما زالَ إهداء القَصـائِد بيننَـا
شَتْم الصـديق وكثْرةَ الألْقـابِ
حتى تُركْتَ كأن أمرك بينَهـم
في كُل مجمعة طَنين ذُبـابِ[260]

ولم يكن وروده فيه على النحو الذي مر، وإنما ورد فيه على أنه غناء، فقد ذكر الجاحظ أن "العرب تسمي طَنين الذّبان... غناء"[261]، والدليل على ذلك أن العسكري أشار إلى أن الذباب يبشر بطنينه[262]، ولا شك أن تبشيره به إنما يكون من فرحه وغنائه في آن، واستشهد الجاحظ على قوله بشعر شاعرين أحدهما شعر حضرمي بن عامر، وليس في البيت الشاهد للشاعر المذكور ما يشير إلى أن طنين الذباب كان في إحدى الرياض الجميلة أو الوديان المعشبة، ولكن قياساً على ما ذكرنا أن غناء الذباب إنما يكون في الروض أو الوادي لإحساسه بجمال الطبيعة الحية فيهما، وأن غناءه فيهما قد يحمل على تشبيه حالة بحالة أفادها قول الشاعر في رواية الجاحظ للبيت: "في كل مجمعة"[263] أو في رواية الثعالبي له "في كل مجتمعِ"[264]، إذ صار أمر من يذكره في البيت ويتحدث الناس في اجتماعهم عنه، أو في موضع اجتماعهم كأنه طنين ذبابٍ في الروض يستهان ولا يبالى به.

8- وغَى[265] الذباب

وقد يعبر بعض الشعراء عن طَنين الذباب في جلَبته

وصياحه بلفظ آخر، يؤدي هذا المعنى فيه أداء أوضح مما أداه سابقه فيه، استعاره الشاعر من الألفاظ المستعملة في الحرب، وأقام عليه صورة من الطبيعة الحية تتألف من أصوات الذباب وحركته فيها، وصورة أخرى من حياة القوم الاجتماعية في تجمعهم ورحليهم، ومن ثَمّ تعالي أصواتهم واختلاطها، بالظروف التي هيأها لانتشار الذباب وتصويته من انتشار العشب على جانبي الماء، وارتفاع حرارة المكان[266]؛ إقامة كان الغرض منها بيان صوت الذباب بالصورة التي سمعه فيها في كثرته واختلاط بعضه في بعض، ذلك أنه وجد أن لفظ "الوغى" هو اللفظ المناسب الذي يدل على طبيعة صوت الذباب في الحالة التي كان عليها في الصورة الأولى، ولكن الشاعر رأى أن هذه الصورة بعنصريها – من الصوت والحركة – إنما تتضح على نحو أفضل بتكراره استعمال لفظ "الوغى" في مقابل استعماله لفظ "هياط"[267]، في صورة الركب المرتحلين في صياحهم وجدالهم في الصورة الثانية، وبجعل هذه الصورة مشبهاً به يستند إليه الشاعر لإبراز العنصر الأساسي في الصورة الأولى، وهو صوت "الذباب"؛ كما يقول المتنخل الهذلي في وصفه[268]:

وماء قد وردتُ أُميم طــامٍ
على أرجائه زجلُ الغَطَــاط[269]

كأن وغَى الخَموشِ بجانبيــه
وغَى ركْبٍ أُميم ذَوِي هياط[270]

ولا شك أن الرواة الذين رووا بيت المتنخل الهذلي قد أدركوا – برواياتهم المتعددة له – صنيعه في المشبه والمشبه به في نقل الصوت الذي سمعه من الذباب، وتقريبه إلى مداركنا بتشخيصه في أقرب صورة ملموسة إلينا، إدراكاً جعل رواياتهم له تتفق في معناها مع الإطار الشكلي الذي وضعه الشاعر لصوت الذباب في صخبه وضجيجه؛ فبعضهم رواه: "وغَى" في مقابل: "زياط"[271]، وبعضهم الآخر رواه: "وعى" في مقابل:"هياط"[272] أو "زياط"[273]، وانفرد ابن منظور بروايته: "لَغَا" في مقابل: "لِغاط"[274]، أما الجوهري فقد رواه: "وغَى" والعجز: "مآتم يلْتَدمن على قتيل"[275]، وإن تكن هذه الرواية الأخيرة لهذا البيت غير صحيحة – إذ خطّأها ابن بري فروى البيت كما ورد في ديوان الهذليين[276] - إلا أنها دلّت كغيرها على ارتفاع أصوات الذباب واختلاطها باختلاط أصوات النساء وارتفاعها في المآتم، وهو أمر يحسب لصالح المعنى في البيت، إذ لم تكن روايات الرواة – جميعها – لألفاظه تخرج في معناها عن المعنى الذي أفاده "وغَى" و"هياط"، لأنهم اختاروا في رواياتهم ألفاظاً ترادف ألفاظ البيت في معناها.

هيئة الذباب

1- حركته

لقد بدا لنا من النماذج السابقة أن الذباب يغني أو يصوت من فرحه وسروره بجمال المكان، وأن الأصل في غنائه وصياحه نشاطُه ومرحه اللذان يبدوان في طيرانه فوق الأشجار والنباتات والأعشاب، وأن طيرانه هكذا هو حركته التي لفتت نظر الشعراء إليها، وإن لم يشيروا في الكثير من أشعارهم إليها إشارة صريحة[277]، وإنما جعلوها معنًى يفْهم أو يستنتج من حديثهم عن صوت الذباب في طيرانه كما مر في الشواهد، ومن استخدامهم صيغاً صرفية أو تراكيب لغوية في نزوعهم إلى الوصف أو التشبيه. وقد أشار القرطبي إلى حركة الذباب وهو يفسر معناه، فذكر أن الذباب إنما "سمي به لكثرة حركته"[278]، ويبدو أنه اشتقّ هذا المعنى من المعنى الذي ذكره اللغويون - ومن ثَمّ نقله عنهم[279] – للتذَبذُب بمعنى التحرك؛ ولما صاغوه منه وهو "الذبذَبة"، وتعني نَوس الشيء المعلق في الهواء[280]، بحيث يكون معنى الذباب أُخذ من المعنى المستفاد منهما وهو الاضطراب والحركة اللذان نلحظهما في مرحه في طيرانه. ويعزز هذا المعنى ما ذكره ابن منظور في تفسير الهامج، فقد قال فيه[281]: "وكل شيء تُرِك بعضه يموج في بعض، فهو هامج"، ولعلّ هذا المعنى لهذا اللفظ اشتقّ من المعنى الذي أفاده الأصل الثلاثي له وهو "همج"، ومعناه ذباب صغير[282] يسقط على وجوه الإبل والغنم والحمير وأعينها[283]، إذ لا يخفى ما يدل عليه هذا التفسير من أن سقوط الهمج على هذه الدواب هو حركته المتولّدة عن طيرانه؛ وعليه فإن اللغويين – ومن ثَمّ الشعراء – ألفوا من اللفظين تركيباً لغوياً يدل على حركة الذباب، وهو يموج بعضه في بعض في سقوطه، فقالوا: "همج هامج"، وربما ألفوا هذا التركيب من دلالة اللفظ الثاني على الأول لمعرفتهم بدلالة معنى الهمج على حركته، يؤكد ذلك رأي ابن منظور في تعليقه على معنى الهامج[284] إذ قال[285]: "وقالوا: همج هامج، فإما أن يكون على ذلك [أي على معنى الهامج]، وإما أن يكون على المبالغة". وربما ألفوا هذا التركيب من دلالة اللفظ الأول على الثاني لأنهم قالوا على التشبيه للرعاع من الناس الحمقَى: إنما هم همج هامج[286]، وذلك إذا اعتبرنا المعنى التأويلي للهمج، يدلك على ذلك أن ابن منظور قال عن أبي سعيد[287]: "الهمجةُ من الناس الأحمق الذي لا يتماسك"، والأحمق في عرفنا قليل العقل الذي يضعف عن أمره[288]،

فهو يضطرب فيه كما يضطرب الهمج في سقوطه. وقد عبر عن هذا المعنى – الأخير – الحارث بن حلزة اليشكري إذ اتخذه إطاراً للمشبه ينفذ منه إلى المشبه به، الذي يدل على حركة الذباب في التركيب اللغوي الذي أومأنا إليه في الاحتمالين الأوليين، وهو يذكر الميت وما يخلّف من مال يتركه للوارث يعبث فيه ويفسده، وأن إفساده له يدل على ضعفه، ومن ثَم اضطرابه في المحافظة عليه، وأنه في ضعفه هذا يشبه همجاً هامجاً؛ فيقول[289]:

يتْرك ما رقّح من عيشه
يعيثُ فيه همج هامج[290]

على أن بعض الشعراء قد دلّ على حركة الذباب باستخدام بعض الصيغ الصرفية – في مزيد الثلاثي – التي تدل على الكثرة والمبالغة، كما في قول أوس بن حجر عندما وصف الظباء إنها تحرك رؤوسها لتطرد القمع عنها، وبالغ في تحريكها رؤوسها بقوله"تقمع" ليدل على كثرة حركة الذباب الذي سقط عليها في قوله: "وعفّر الظباء في الكناس تَقَمع"، أو باستخدام بعض المشتقات كصيغ المبالغة لوصف من يقع عليه الفعل، وهو سقوط الذباب على الظبية في قول أبي ذؤيب الهذلي[291]:

كأن ابنَةَ السهمي يوم لَقيتُها
موشحةٌ بالطرتَين هميج[292]

قال ابن سيده فيه[293]: "قيل ظبيةٌ هميج أخرجوه مخْرج فعيل في معنى مفعول حين أُصيبت بما تكره"، واستشهد على ذلك بقول أبي ذؤيب، وقد وضح ابن منظور ما أصيبت الظبية به وكان من سقوط الذباب عليها؛ فقال في تعليقه على البيت[294]: "قالوا: ظبية ذُعرتْ من الهمج". وعلى هذا يبدو أن قولهم "ظبية هميج" مأخوذ من التهمج وهو "أن تفتح [الظبية] عيونها ثم تُغْمضها من الهمج"، وإنما كان ذلك من كثرة أذاه لها في سقوطه عليها مما سبب لها الذعر، ومنه أيضاً قول حميد بن ثور يصف ظبية اعتراها الهمج[295]:

هميج تَعلُّ عن خذالٍ
نَتيج ثَلاث بغيض الثرى[296]

2- حاله

أ- في فرحه ونشاطه

ويقصد بها وضع الذباب أو صورته التي يكون عليها في فَرحه، والتي يؤثر فيها عوامل عدة في البيئة المحيطة به، تتمثل – في الدرجة الأولى – في جمال الروض أو الوادي لخصوبتهما، ومن ثَم انخفاض أرض الوادي عما سواه، وتوفّر المناخ المناسب. ولا شك أن النماذج السابقة أعطت مؤشراً واضحاً على أثر عوامل البيئة الحية في فَرح الذباب وسروره، سروراً ظهرت نتائجه في غنائه وطيرانه، وفي حركته وانتشاره، ولكن هذه النماذج لم تكن شاهداً مباشراً على حال الذباب التي نفردها بالحديث، وخير النماذج التي تمثل حالة المرح والفرح في الذباب قول أوس بن حجر يشير إليها في سياق وصفه حمار الوحش؛ فهو يصف ذباباً يطير فوق الماء، ويصور لنا هيئة طيرانه فوقه بأنه يطير على شكل جماعات طيراناً يتفق وطرائق الماء، بحيث نستدل من طيرانه على هذا النحو أنه لا يكون مرتفعاً عن سطح الماء، وإنما يلامسه وكأنه يجري عليه[297]، جرياً أفاد معنى الاستعلاء المجازي الذي دلّ عليه الشاعر بحرف الجر "على"[298]، ويصف جريه عليه بأنه – لمرحه ونشاطه – يرفع يديه ويطرحهما معاً وكأنه فرس يستن في المضمار[299]، ولا شك أن اختيار الشاعر لهذا اللفظ "يستن" وهو خاص بالفرس، هو الذي ساعده على نقل المشهد الذي رآه لمرح الذباب نقلاً دقيقاً؛ فيقول[300]:

تَذَكر عيناً من غُمازةَ ماؤها
له حبب تَستَن فيه الزخارفُ[301]

وواضح من البيت الشاهد أنه يختلف عن النماذج السابقة في أنه يبين الحالة التي كان الذباب عليها دون صوته، مع أنه يفْهم منه – دون أدنى شك – أن الذباب كان يغنّي فيها، أما تلك النماذج فكانت شاهداً على بيان صوت الذباب المترتب على حالة الفرح التي تعتوره، مما يشير إلى أن حالة الفرح هي مرحلة سابقة لغناء الذباب.

وقد دلّ المتلمس الضبعي على حال الذباب في سروره، وكثرته ونشاطه بألفاظ الحياة لدلالتها على معنى الانتعاش، إذ كان اختياره للفظ "حي" في وصفه الذباب مناسباً لبيئة اليمامة، التي وصفها بأنها مخصبة وبدا فيها الربيع؛ ذلك أنها لما أمرعت أرضها كثُر ذبانها في الرياض، والرياض – كما ذكرنا – أماكن مناسبة لانتشار الذباب، وانتشاره فيها "دليل الخصبِ وكثرة النبات"[302]؛ فيقول يخاطب النعمان بن المنذر، أو عمرو بن هند خطاب تهكّم[303]:

هلُم إليها قد أُثيرتْ زروعها
وعادتْ عليها المنْجُنون تَكَدس[304]

وذَاك أوان العرض حي ذُبابه
زنابيره والأزرقُ المتَلَمس[305]

وقد اختلف الرواة في رواية اللفظ "حي" وفي ضبط حركته، اختلافاً لم يخرجوا في معنى رواياته على المعنى

الذي أراده الشاعر في وصفه حال الذباب، باعتبارهم البيئة الخصبة ودلالتها على الانتعاش، أو باعتبارهم أصل اللفظ أو دلالة اللفظ على الحياة؛ فبعضهم رواه(306): "حي ذُبابه"، وبعضهم الآخر رواه(307): "حي ذُبابه"، أما الرواية الأولى فعلّق عليها ابن قتيبة تعليقاً يبين فيه حالة الهيجان التي كان الذباب عليها وسببها؛ فقال(308): "يقول حي ذُبابه وجاش لما(309) كثر نبته"، وعلق ابن دريد على هذه الرواية – في البيت الذي استشهد به – وذكر الرواية الثانية بحيث نستدل من تعليقه على الروايتين أن لهما المعنى نفسه، إذ دل اشتقاق الرواية الأولى على المعنى الذي أفادته الرواية الثانية؛ فقال(310): "حي: أراد حيي فأدغم الياء في الياء، ويروى: حي ذُبابه، ومن روى حي أراد من الحياة". ومما يدل أيضاً على أن الروايتين لهما الدلالة نفسها التي أرادها الشاعر في وصفه انتعاش الذباب – والتي نستخلصها من معنى الحياة – أن كلا من المرزوقي والتبريزي روى البيت رواية تخالف رواية الآخر، ولكن تفسير كل منهما لروايته جاء مطابقاً لتفسير الآخر لروايته، فقد رواه المرزوقي(311): "حي ذبابه"، ورواه التبريزي(312): "حي ذبابه"، وقالا في تفسيرهما للروايتين: "وقوله حي [أو حي] ذبابه أي: عاش بالخصب فيه". ويصدق استنتاجنا إذا علمنا أن هذين العالمين قد أشارا إلى رواية ثالثة تشير إلى المعنى السابق بلفظ آخر، إذ يقولان فيها: "ويروى جن(313) ذبابه أي: كثُر ونَشط"، ولا شك أن كثرة الذباب ونشاطه أمران يترتبان على طبيعة المكان التي وصفاها بالخصب.

فإذا تأولنا معنى الرواية الأخيرة فقلنا إن جنون الذباب معناه: كثرة طنينه، وهو كثرة ترنمه في طيرانه، وكان هذا التأويل موافقاً لرواية رابعة رواها الفيروزآبادي لهذا اللفظ هي "طَن"(314)، انصرفنا إلى المعنى الذي ذكرناه سابقاً في الحديث عن أصوات الذبان، وإن كُنا قد ذهبنا فيه إلى هذا المعنى وهو المعنى الذي فسره ابن منظور(315)، فإننا لم نخرج فيه أيضاً على ما أردناه هنا من الحديث عن انتعاش الذباب ونشاطه، ذلك أن ترنم الذباب في طيرانه هو مرحلة تالية لنشاطه، وأن نشاطه هو فرحه وسروره اللذان يؤثر فيهما العوامل التي أومأنا إليها في صدر هذا الحديث.

ب– في ضعفه وقلّة حيلته

لقد أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز(316)، ومن ثَم المفسرون أن الذباب من أضعف مخلوقات الله(317)، وأن الله خصه بالحديث في قوله(318): (وإن يسلُبهم الذباب شَيْئاً لا يستَنْقذُوه منْه) لأربعة أمور تخصه منها ضعفه وكثرته(319). وإن يكن السياق القرآني يختلف اختلافاً واضحاً عن سياق الشعر في الحديث عن الذباب(320)، إلا أنه دل دلالة صريحة على أن كثرة الذباب لا تغني عن ضعفه، وأن ضعفه أمر ظاهر للعيان(321)، ولذلك كان الشاعر الجاهلي إذا أراد أن يظهر هذه الصفة فيه رسم له أُطراً من بعض تصرفاته تساعده على إبرازها، من هذه التصرفات سقوطه على الدواب في مواضع مختلفة منها، ثم شكلّ سقوطه عليها بردة فعل عكسية منها، زخرف بعضها في صور جمالية كان الغرض منها إظهار صفة من الصفات المستحبة في هذه الدواب، وجمال المشبه من خلال المشبه به، بحيث يفْهم منها أن الحديث عن الذباب فيها إنما جاء عرضاً، وأنه كان وسيلة لغاية.

وحتى يتحقّق للشاعر الجاهلي رسم صورة واضحة لضعف الذباب؛ فإنه يتخير الحيوان الذي يضعه في البيئة التي يكثر فيها الذباب، وينتشر انتشاراً يزعج الحيوان ويضايقه بكثرة سقوطه عليه في مواضع حساسة؛ وذلك ليقرر نهاية الذباب بتصرف هذا الحيوان تصرفاً يؤدي إلى قتله أو طرده عنه.

وقد تعرض لهذه الصورة بشيء من التفصيل تميم بن أُبي بن مقْبِل في وصفه الفرس؛ فذكر أن الذباب يقع على موقَي عينَيه فيلسعه فيهما مسبباً له الأذى، فيغضب الفرس ويثور لألم اللسعة، ويجد نفسه ملزماً بقتله للتخلّص منه. وقد صور الشاعر طريقة قتله مستوحياً هذه الصورة من أعمال المرأة، فجعل الفرس يطبق أحد جفنَيه على الآخر إطباقاً شبهه بعمل المرأة الصناع، وهي تطبق (أي تجعل) الطباب على ملتقى طَرفَي الجلد في القربة أو السقاء وتسويه وتخرزه، يقول الجاحظ(322): "والفرس الكريم تقع الذبابة على موقَي عينيه، فيصفق بأحد جفنيه، فتخر الذبابة ميتةً". ولفت الشاعر – حينئذ – منظر الذباب المقتول وهو يتساقط من جفون الفرس، فشبهه في تساقطه منه بسقوط الجمان من سلْكه؛ يقول تميم(323):

إذا مأْقياه أصفَقَا الطرفَ صفْقَةً
كصفْق الصناعِ بالطبابِ ثُقَابِلُه(324)

حسبتَ الْتقَاء مأْقييه بطَرفه
سقُوطَ جمانٍ أخْطَأ السلْك واصلُه(325)

ولكن الذباب – وهو من النعر(326) كما يذكر الشاعر – لم يقع على عينَي الفرس وحسب، وإنما وقع على صدره أيضاً، وكان وقوعه عليه بأشكال مختلفة أحاد ومثنى مسبباً له ألماً آخر، فكان لا بد للفرس – وقد ضاق ذرعاً بالذباب – من أن يقتله كسابقه، فقتله في هذه المرة بشدة صهيله، وفي الحيوان(327): "ويصيح الحمار فتُصعق منه الذبابة فتموت"،

فتساقط الذباب – حينئذ – من على صدر الفرس بعضه مقتول، وبعضه غُشي عليه بصهيله، وقد شبهه في سقوطه للخطوط التي فيه بكساء ماري مخطّط بسواد وبياض، وذلك لاختلاف ألوانه كاختلاف ألوان الماري؛ فيقول[328]:

تَرى النعرات الخُضر تَحتَ لَبانه
فُرادى ومثْنَى أصعقَتْها صواهلُه[329]

فَريساً، ومغْشياً عليه كأنه
خُيوطَةُ مـَاري لَواهن فاتلُـه[330]

وبلغ من مضايقة الذباب للفرس مبلغاً جعل ابن مقبل يظهر صفة أخرى فيه، تتجاوز شدة صهيله إلى صوت آخر يكون في نثيره[331]، فعمد إلى تكثيف الصورتين السابقتين في صورة واحدة قتل فيها الذباب الذي كان يقع على عينَي الفرس قتلاً تاماً بطريقتين، الأولى أنه جعله يصفق جفْنَيه ويقتله، والثانية – وهي متزامنة مع الأولى – أنه قتله بقوة نثيره، بحيث إذا سمعه الذباب خر صعقاً؛ وفي ذلك يقول[332]:

يقص الذباب بطَرفه وبَنثيره
ويثير نَقْعاً في ذُرى الأطْرابِ[333]

وتتكرر صورة الذباب الذي يقْتَل بالطرف في قول المرقش الأكبر، يصف ناقة قوية أنها تضربه بجفنها إذا دنا من عينها فتقتله، في حالة تشير إلى ضعفه على نحو ما يقول[334]:

بمحالة تَقص الذباب بطَرفها
خُلقَتْ معاقمها على مطَوائِها[335]

وقد سمى ابن مقبل الصوت الذي يخرج من أنف الخيل النخير، تسمية كان الغرض منها بيان الدور الذي قامت به المهور في كفّ الذباب – الذي كان تكاثر مع اشتداد الحر، وازداد إزعاجه لها فيه – وطرده عنها بأفواهها ونخيرها، طرداً يتناسب مع صغَر المهور، وطبيعة قدرتها؛ فيقول[336]:

فيهم تَجاوب أفْلاء الوجيه إذا
صام الضحى، تَقْدع الذبان بالنخَرِ[337]

ويؤدي انتشار الذباب وكثرة حركته إلى وقوعه على أجسام الدواب، فيلسعها بإبرة له مسبباً لها أذًى شديداً، فالشعراء[338] في بيت الشماخ تزعج الناقة في أمرين، في لسعها لها في صدرها وخاصرتيها وفي صوتها، يقول ابن منظور[339]: "الشعراء: ذُبابةٌ يقال هي التي لها إبرة... تلسع الإبل في مراق الضلوع وما حولها وما تحت الذنب والبطن والإبطين... وهي تطير على الإبل حتى تسمع لصوتها دوياً"؛ ولذلك فإنها تطردها عنها طرداً يشْعر بتمكّنها منها، إذ أن الشعراء لا تلبث عليها أكثر مما يلبث الضيف عند من نزل عنده، وقد عبر الشاعر عن مدة إقامتها عليها باستعارته "الضيف" لِـ "الشعراء"، استعارة رشّحها بقوله "منزله" في البيت الذي يقول فيه[340]:

تَذُب ضيفاً من الشعراء منْزِلُه
ـِنْها لَبان وأقْراب زهالِيلُ[341]

الخاتمـة

يخلص الباحث – في حديثه عن الذباب في اللغة والشعر – إلى نتائج ثلاث، لا يمكن له الوصول إلى آخرها دون أن يتحدث عن أولها، ويمر بثانيها؛ لأن الأولى تتعلّق بتعريف الذباب وتعيين جنسه عند اللغويين وعلماء الأدب، ولأن الثانية تقوم على بيان الصورة العامة للذباب في الشعر الجاهلي، في إظهار صوته والحديث عن غنائه، والتي اشْتُقتْ منها النتيجة الثالثة اشتقاقاً يتّصل في بعضه في دعم النتيجة الثانية وتأكيدها، في الحديث عن مرحه وفرحه وكثرة حركاته، ويختلف عنها في بعضه الآخر في الحديث عن ضعفه وقلّة حيلته. أما النتيجة الأولى فكانت في شقين، كان الشق الأول منهما في تعريف الذباب أنه الطير الأسود الذي يكون في البيوت، يسقط في الإناء والطعام، وجلى الشقّ الثاني منهما مفرده وجمعه أن "الذباب" مفرد، وجمعه في القلة "أذبة"، وفي الكثير "ذبان". وقد تأتّى للباحث الوصول إلى هذه النتيجة – بفرعيها – من عرضه لآراء اللغويين وعلماء الأدب في تعريف الذباب تعريفاً قاده إلى الحديث عن أجناسه الأخرى، ما يضيف إلى التعريف السابق له – كونه اسماً عاماً له – هذه الأجناس التي وصفَتْ بتنوع ألوانها، فمنها حمر وزرق وصفْر وخُضر. وقاده كذلك إلى فَصل أجناس أخرى منه حسبتْ عليه عند اللغويين كالنحل والدبر وبعض أجناس من الزنابير والفراش، فَصلاً اعتمد فيه الباحث على بيان الأمور التي اختلط على اللغويين معرفتها، فعدوا النحل من الذباب لذلك، وعلى الفروق التي تفرق هذه الأجناس عن الذباب.

وتأتّت له هذه النتيجة أيضاً من حديثه عن اختلاف اللغويين في واحده وجمعه، فذكر اختلافهم في كون "الذباب" واحداً، أو أن له واحداً، وهم على قولهم إنه جمع اختلفوا في صيغة واحده بين "ذُبابة" و"ذبانة" اللتين خطّأهما علماء اللغة، ووجه الخطأ عند بعضهم أن معنى الأولى ينصرف إلى البقية من الدين ونحوه، وأن الثانية من قول العامة، وبناء على ذلك ميز النحاة بين حالتين في كون الواحد (وهو الذباب) اسم جنس يشمل الذكر والأنثى، أو في كونه مؤنّثاً (وهو ذُبابة)، تمييزاً احتكموا فيه في الحالة الأولى إلى القواعد النحوية التي

تذكر أن "الذباب" واحد وجمعه "ذبان"، واحتكموا فيه في الحالة الثانية إلى الأخبار التي تذكر بعض تصرفات الذباب في الحياة من الناحية العملية، فقالوا: ذبابة تمييزاً للأنثى من الذكر.

وأما النتيجة الثانية التي توصل إليها الباحث فقد أظهرت الذباب في صورة جميلة تمثّلت في غنائه ونشاطه وحركاته، وقد مهد إليها بالحديث عن تصور العرب لصوت الذباب أنهم استمدوا وصفهم له من الصورة الماثلة في أذهانهم للشارب الثمل، في أثر الخمر في نفسه وعلى هيئته؛ فاشتقّوا منها ما يؤدي غرضهم في وصف صوت الذباب وحركاته، أداء تضافرت الشواهد الشعرية على توضيحه وتجليته.

وقد تبين للباحث في استقرائه للشعر الجاهلي – في الإطار الذي التزم به في بحثه – أن للذباب أصواتاً كثيرة، وخاصة ذبان الكلأ والرياض؛ لأن الذباب إنما يكثر ويصوت في الأماكن الملتفّة العشب لإحساسه بجمال الطبيعة الحية من حوله، ولشعوره بدفء المناخ، وهما عاملان أساسيان يدفعان الذباب إلى أن يغنّي هزجاً غناء متنوعاً، يدل على حالة الطرب والفرح التي وصل إليها، ولا شك أنه لجأ إلى التعبير عن فرحه ومرحه بوسيلة أخرى ليست صوتية، وإنما بالحركات التي يشكّلها في طيرانه. ومع قناعة الشاعر الجاهلي بحالة الذباب هذه إلاّ أنه اتّخذها – أحياناً - مجالاً يتّكىء عليه في المشبه في توضيح الصورة التي يصفها في المشبه به.

والنتيجة الثالثة التي توصل إليها الباحث أن كثرة الذباب لا تغني عن ضعفه، لأن كثرته قد تسبب إزعاجاً لبعض الحيوانات في سقوطه عليها في مواضع حساسة، وفي لسعه لها، وفي جلبته وصياحه، مما يضطرها إلى طرده عنها، أو قتْله قتْلاً يدلّ على ضعفه وقلّة حيلته.

الهوامـش

(1) جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 304.

(2) أي مسمياته التي عرِفَ بها من حيث هو ذُباب، وانظر تعليقنا على النحل فيما يأتي.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (ذبب)، وانظر ابن سيده، المخصص 358:2، والصعيدي، الإفصاح:452، وجمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 302 - 303.

(4) الزيادة من الصعيدي، الإفصاح: 452، وانظر الجاحظ، الحيوان 319:3 في وصف الذباب بالطير، و358، وجمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 302. والذباب وإن كان يطير فليس ذلك من أسمائه.

(5) ابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(6) لحن العوام: 33.

(7) ذكر ابن منظور، لسان العرب: (نحل) أن "النحل: ذباب العسل"، وانظر الصعيدي، الإفصاح:450، وجمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 307.

(8) انظر المتن المتعلق بالحاشية رقم (5).

(9) أي جعلها من التعريف الذي ذكرناه عن ابن منظور أولاً. انظر المخصص 358:2.

(10) المصدر السابق 358:2.

(11) المصدر السابق 357:2 فيما يرويه عن أبي حاتم.

(12) القاموس المحيط: (ذبب)؛ قال: "والذباب: معروف، والنحلُ".

(13) الحيوان 305:3.

(14) سيأتي تعريفه.

(15) الدبر، بالفتح: النحل والزنابير، وقيل: الدبر، الزنابير، ويقال بالكسر أيضاً. انظر ابن منظور، لسان العرب: (دبر).

(16) الحيوان 314:3.

(17) فذكر منها الشعراء، وذباب الكلاب، وذبان الكلأ والرياض.

(18) انظر ابن قتيبة، أدب الكاتب: 193 – 194، وابن منظور، لسان العرب: (شعر)، (قمع)، (نعر). وسيأتي الحديث عنها.

(19) الحيوان 390:3.

(20) المصدر السابق 392:3، وانظر ابن قتيبة، المعاني الكبير 604:2، وابن منظور، لسان العرب: (ذبب)، وفي ابن حجر، فتح الباري 419:11 عن ابن عمر مرفوعاً: " الذباب كله في النار إلاّ النحل".

(21) المعاني الكبير 604:2.

(22) 298:10.

(23) المصدر السابق 299:10.

(24) سرح العيون: 29، وانظر جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 303.

(25) لحن العوام: 34.

(26) الحيوان 315:3 – 316، وانظر ص: 324- 325.

(27) جاء في الحديث: "عمر الذباب أربعون يوماً". ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر 152:2.

(28) الجاحظ، الحيوان 390:3 – 391، وانظر ابن سيده،

المخصص 2:358- 359.

(29) ابن منظور، لسان العرب: (خضر)، وانظر ابن قتيبة، المعاني الكبير 2:604، والتبريزي، تهذيب إصلاح المنطق: 880.

(30) الأعشى، ديوانه: 325. والطحلة: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد.

(31) انظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 274، 275، 277، وابن سيده، المخصص 2:355، والصعيدي، الإفصاح: 450.

(32) انظر قول الزبيدي في لحن العوام، وابن سيده السابقَين، وابن منظور في الحاشية رقم (7).

(33) الحيوان 3:314، وانظر ص: 346، 351, 352، 389، وابن قتيبة، المعاني الكبير 2:604، وأبا حنيفة، النبات: 50 –52، وابن سيده، المخصص 2:358، 359، وابن منظور، لسان العرب: (ختع)، (خزب)، (خوز)، (زنر)، (غرد).

(34) ابن منظور، لسان العرب: (غنن)، وانظر ابن سيده، المخصص 2:359. ولذلك قيل في وصفه: واد مغن، وسيأتي الحديث عن ذلك.

(35) ابن سيده، المخصص 2:356. وانظر قوله تعالى في النحل: (ثُم كُلي من كُل الثمرات) النحل، الآية: 69، وجمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 307.

(36) السكّري، شرح أشعار الهذليين: 1108.

(37) الجرس: الأكلُ، جرست النحل: إذا أكلت الشجر للتعسيل. والسراة: ظهر الجبل. والأري: العمل والتعسيل. وكربات: الواحدة كربة، وهي مواضع فيها غلظ. والأمسلة: جمع مسيل، وهي بطون الأودية تسيل.

(38) المصدر السابق: 144.

(39) لم يرج لسعها: لم يخَفْ ولم يبالِها. وخالفها: أي جاء إلى عسلها وهي غائبةٌ ترعى وقد سرحت، خالفها إلى العسل. ونوب: تنتاب المرعى، فتأكل ثم ترجع فتُعسل. وعوامل: تعمل العسل والشمع.

(40) النسائي، سنن النسائي: 270، وانظر الزبيدي، لحن العوام: 34، والزمخشري، الفائق في غريب الحديث 1:340.

(41) النهاية في غريب الحديث 2:152، وانظر الزمخشري، الفائق 1:340.

(42) ابن نباتة المصري، سرح العيون:29، وانظر الجاحظ، الحيوان 3:307، 360، 404.

(43) مر الحديث، وهو: "عمر الذباب أربعون يوماً، والذباب في النار".

(44) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث 2:152، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(45) انظر الجاحظ، الحيوان 3:319 – 320، 333 – 334، 351، 352، وأبا حنيفة الدينوري، النبات: 47.

(46) إلاّ في سبيل حماية عسلها، ابن منظور، لسان العرب: (نحل)، وانظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 277، 280.

(47) ابن منظور، لسان العرب: (نحل)، وانظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 276 – 277، 280، والثعالبي، ثمار القلوب: 507، وجمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 307.

(48) انظر الجاحظ، الحيوان 3:320 - 322، 331 – 332، 338، 348، 349، 358، 360، 381، والنويري، نهاية الأرب 10:300.

(49) الجاحظ، الحيوان 3:328.

(50) انظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 257 - 269، وابن سيده، المخصص 2:355 – 356، وابن منظور، لسان العرب: (عسل)، (نحل).

(51) سورة النحل، الآية: 68، وانظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 259، 273 – 276، 281، 286 - 288، وجمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 307.

(52) بفتح الدال وكسرها، انظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 270، وابن سيده، المخصص 2:354، وابن منظور، لسان العرب: (دبر).

(53) العسكري، التلخيص: 658، وأبو حنيفة الدينوري، النبات: 270، 272.

(54) ابن منظور، لسان العرب: (دبر)، وانظر لبيد بن ربيعة، شرح ديوانه: 258، والسكري، شرح أشعار الهذليين: 136.

(55) أبو حنيفة الدينوري، النبات: 270، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (دبر).

(56) أبو حنيفة الدينوري، النبات: 272، وانظر السكري، شرح أشعار الهذليين: 508، 1259، وابن منظور، لسان العرب: (دبر).

(57) النبات: 270، وانظر البيت في: لبيد بن ربيعة، شرح ديوانه: 258، وابن منظور، لسان العرب: (دبر).

(58) الأشهب: الأبيض وهو الماء الذي مزجت به الخمر. وأبكار: جمع بكْر، وبكْر كُل شيء أوله. والمزن: السحاب الأبيض، الواحدة مزنة. والأري: العسل. وشاره: جناه، والنحل منصوب بإسقاط من أي جناه من النحل عاسل. والعاسل: الذي يشتار العسل ويأخذه من الخلية.

(59) أبو حنيفة الدينوري، النبات: 270 – 271، وانظر البيت في: أوس بن حجر، ديوانه: 98، وابن سيده، المخصص 2:354.

(60) أبراد: مفرده برد، وهو ثوب فيه خطوط وخص بعضهم به

الوشي. والجرجة: مثل الخُرج من أدم. والأدكن: الزق. والأري: العسل.

(61) ابن منظور، لسان العرب: (دبر)، وانظر (زنبر)، وأبا حنيفة الدينوري، النبات: 271، 272، والجوهري، الصحاح: (زنبر).

(62) النبات: 270، وانظر ابن سيده، المخصص 354:2، وفيه: الدبر بفتح الدال وكسرها.

(63) ابن منظور، لسان العرب: (دبر)، والصعيدي، الإفصاح: 451.

(64) ابن سيده، المخصص 354:2، وانظر لبيد بن ربيعة، شرح ديوانه: 258، وأبا حنيفة الدينوري، النبات: 270.

(65) النبات: 272.

(66) وقد تكون طائراً يلسع، انظر الجاحظ، الحيوان 323:3، وابن قتيبة، المعاني الكبير 604:2، وأبا حنيفة الدينوري، النبات: 49، وابن سيده، المخصص 360:2، وابن منظور، لسان العرب: (زنبر)، (زنر)، والصعيدي، الإفصاح: 453.

(67) الفراش: الطير الذي يلْقي نفسه في ضوء السراج، واحدته فراشة. ابن منظور، لسان العرب: (فرش).

(68) الثعالبي، ثمار القلوب: 505، وانظر ص: 506، والجاحظ، الحيوان 304:3 – 305، 398، والميداني، مجمع الأمثال 458:1.

(69) الميداني، مجمع الأمثال 448:1، 449 على الترتيب.

(70) اليراع: ذباب يطير بالليل كأنه نار. انظر العسكري، التلخيص: 658، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (يرع).

(71) الثعالبي، ثمار القلوب: 506، وانظر الميداني، مجمع الأمثال 448:1.

(72) انظر ابن نباتة المصري، سرح العيون: 29، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ذبب).

(73) انظر الجاحظ، الحيوان 317:3، والطبري، تفسيره 141:17، وابن دريد، الاشتقاق: 425، وابن دريد، جمهرة اللغة: 999 – 1000، والأزهري، تهذيب اللغة: (ذبب)، والعسكري، التلخيص: 658، وابن سيده، المخصص 358:2، وابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(74) الحج، الآية: 73، وانظر الطبري، تفسيره 141:17، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم 235:3.

(75) التبريزي، شرح المعلقات العشر: 220، وانظر ابن الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 314، وسيأتي التعليق عليه.

(76) سيبويه، الكتاب 603:3، وابن دريد، جمهرة اللغة: 1000، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ذبب)، وابن يعيش، شرح المفصل 43:5، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط : (ذبب).

(77) سيبويه، الكتاب 603:3، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(78) النابغة، ديوانه (الشعر المنحول): 228، وانظر الأصفهاني، الأغاني 40:11 (دون عزو)، وابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(79) المشْفَر والمشْفَر للبعير: كالشفة للإنسان، والجحفلة للفرس، ومشافر الفرس مستعارة منه.

(80) على اعتبار أن الذباب جمع، وواحدته ذُبابة. انظر معجم مقاييس اللغة: (ذبب).

(81) ذباب العين: ناظرها، إنسانها.

(82) انظر ص: 425، 426.

(83) الكتاب 604:3، وانظر ابن دريد، الاشتقاق: 425، وابن يعيش، شرح المفصل 43:5، وابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(84) المفصل: 194.

(85) ابن دريد، الاشتقاق: 425.

(86) المصدر السابق: 425.

(87) لسان العرب: (ذبب).

(88) انظر الجوهري، الصحاح، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ذبب).

(89) العسكري، التلخيص: 657.

(90) تفسيره 90:11.

(91) شرح المفصل 43:5.

(92) انظر الجاحظ، الحيوان 320:3، 325، 401، 403، 404، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم 235:3.

(93) أو الذبان، انظر الجاحظ، الحيوان 319:3، 320، 325، وابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (غنن).

(94) انظر الجاحظ، الحيوان 401:3.

(95) انظر ابن قتيبة، المعاني الكبير106:1، 606:2، 608، وابن دريد، الاشتقاق: 559، وابن منظور، لسان العرب: (نعر).

(96) انظر ابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (شذا)، (قمع)، (نعر)، وسيأتي الحديث عن النعر.

(97) إصلاح المنطق: 306، وانظر الجاحظ، الحيوان 385:3، وابن قتيبة، أدب الكاتب: 410، وابن نباتة المصري، سرح العيون: 29.

(98) انظر ابن قتيبة، أدب الكاتب: 410.

(99) الاشتقاق: 425.

(100) لحن العوام: 34، وانظر الأزهري، تهذيب اللغة،

والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ذبب) في معنى "ذبابة".

(101) لسان العرب: (ذبب)، وانظر الزبيدي، لحن العوام: 34-35.

(102) في الزبيدي، لحن العوام، وابن سيده، المخصص 358:2 "أبو عبيد".

(103) في ابن سيده، المخصص 358:2 "روي عن الأحمر في واحدة ذبانة".

(104) انظر المصدر السابق 358:2 عن أبي عبيد، وابن منظور، لسان العرب: (نعر).

(105) قال ابن دريد في جمهرة اللغة: 1000 "قول العامة ذباناً فخطأ"، ولعله أراد "ذبانة" فأخطأ أو أخطأ الناسخ في النقل، وانظر قول الزبيدي فيما يأتي، والجوهري، الصحاح: (ذبب)، والقرطبي، تفسيره 90:11، وابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(106) ابن دريد، الاشتقاق: 425، وهم العامة كما وصفهم العسكري في التلخيص: 657.

(107) الزبيدي، لحن العوام: 31، وانظر ص: 157.

(108) المعجم الوسيط: (ذبب).

(109) انظر الأسد، القيان والغناء: 110– 113، 165– 176، والجبوري، الشعر الجاهلي: 68-71، والحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي: 447، 450 – 452، 464، وضيف، العصر الجاهلي: 70 - 72.

(110) الجبوري، الشعر الجاهلي: 68.

(111) الأعشى، ديوانه: 205.

(112) الراح: الخمر. والطهرجارة: الفنجانة.

(113) تغشّتني: اشتملت علي. واستدارة: الدوار يأخذ في الرأس من نشوة الخمر.

(114) المصدر السابق: 409.

(115) مسترعفاً: سائلاً، وأصله من الرعاف وهو الدم الذي يسيل من الأنف. والشمول: الخمر الباردة التي شملتها ريح الشمال أي ضربتها فبردت. وصفّق الخمر: روقها أو مزجها بالماء. والشن: القربة الناعمة التي أخلقها الاستعمال فهي تبرد الماء إذا حفظ فيها.

(116) الغدوة: من بعد الفجر إلى طلوع الشمس. والأصيل: من بعد العصر إلى غروب الشمس. والوسن: النوم.

(117) طفيل الغنوي، ديوانه: 87. وتتكرر صورة الثمل الذي يميد من السكْر في ديوان امرىءالقيس: 45 في حديثه عن حمار الوحش.

(118) المروحة: المفازة، وهي الموضع الذي تخترق فيه الريح. وإذا تدلت به: أي إذا هبطت به الناقة من نَشْزٍ إلى مطمئن.

(119) ابن منظور، لسان العرب: (غرد).

(120) غرّد الإنسان: رفع صوته وطَرب. والغَرد: الذي يمد في صوته ويطرب، والتغريد: التطريب، والتغَرد والتغريد: صوت معه بحح. ووالكف: وكف الدمع والماء، بمعنى سال، والواكف: الذي يقوم بعصر النبيذ. والمعصار: الذي يجعل فيه الشيء ثم يعصر حتى يتحلب ماؤه. ومعنى البيت: وعندنا نبيذ يحمل صاحبه على أن يتغنّى إذا شربه.

(121) الأعشى، ديوانه: 409.

(122) الطلاء: الخمر. وخسرواني: نسبة إلى خسروشاه. وارجحن: مال واهتز.

(123) و"رجوحه، ورجحانه": بمعنى مال.

(124) انظر المتن المتعلّق بالحاشية رقم (109).

(125) طفيل الغنوي، ديوانه: 86. وقد اخترنا هذا المثال دون غيره، لأن الحمام كالذباب من الطيور.

(126) يغني الحمام فوقها: يقول إنها في بنيان منيف يغَرد فيه الحمام. وفي عريش مظلل: يعني السكارى، الوصف لهم. والعريش: ما يستَظل به، وخيمة من خشبٍ وثُمام، وعرشه إذا عطف العيدان التي تُرسل عليها قُضبان الكرم، والواحد عرشٌ والجمع عروش، ويقال: عريش وجمعه عرش. والمظلل: المستَتر. ويقال: عرشٌ مظَلل: من الظل. والظل: الفَيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس أي شيء كان.

(127) امرؤالقيس، ديوانه: 45، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (غرد).

(128) انظر طرفة، ديوانه (صلة الديوان): 152، ولبيد، شرح ديوانه: 96، والسكري، شرح أشعار الهذليين: 132، والأسد: القيان والغناء: 110، 171، 180 – 181، والحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي: 453.

(129) الحطيئة، ديوانه: 77.

(130) تلع: ارتفع. والمتغرد: المتغني. وتُراقب: تنظر.

(131) انظر الحاشية رقم (120).

(132) انظر الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي: 451، 452.

(133) زهير، شعره: 239، وانظر جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 304.

(134) المستأسد: الروض تكامل نبته، وكثر وطال. ويندى: من الندى، وهو الطلّ. وأخو الخمر: صاحبها وشاربها، وهو السكران.

(135) سيأتي تفسيره.

(136) البغدادي، خزانة الأدب 127:1، وانظر عنترة، ديوانه: 133.

(137) عنترة، ديوانه: 197. وسيأتي تفسير المفردات في البيت فيما يأتي من حواشٍ.

(138) امرؤالقيس، ديوانه: 162. وانظر ما قيل عن البيت في:

ابن الأنباري، الأضداد: 194، والشريف المرتضى، أمالي المرتضى 190:2 – 191.

(139) فظلّ: أي الكلب. ويرنح: يستدير، كأنه يريد أن يسقط، ويميد ويتمايل كالسكران. والغيطل: الشجر الملتفّ، والواحدة غيطلة. والحمار النعر: الذي أصابته النعرة في أنفه.

(140) النزو: الوثوب، القفز.

(141) المرنح: الذي به دوار وتمايل من السكْر. انظر امرأالقيس، ديوانه: 162، والتبريزي، تهذيب إصلاح المنطق: 482.

(142) انظر النحاس، شرح ديوان امرىءالقيس: 91، وابن الأنباري، الأضداد: 194، والشريف المرتضى، أمالي المرتضى 190:2.

(143) ابن منظور، لسان العرب: (نعر)، والنعرة: جنس من الذباب يدخل في أنوف الحمير والخيل، قيل: له إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وربما دخل في أنف الحمار فيركب رأسه ولا يرده شيء؛ فتقول: حمار نَعِر.

(144) انظر ابن السكيت، إصلاح المنطق: 205، وابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (نعر).

(145) النحاس، شرح ديوان امرىء لقيس: 91.

(146) ابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (نعر).

(147) هذَى: إذا هذَر بكلام لا يفْهم، وقيل: تكلّم بكلام غير معقول في مرض أو غيره.

(148) الدنْدنة: أن تسمع من الرجل نَغْمة ولا تفهم ما يقول. والدنين والدنْدن والدنْدنة: صوت الذباب والنحل والزنابير ونحوها من هينَمة الكلام الذي لا يفْهم. وستأتي الإشارة إليها. والهينَمة: الصوت الخفي أو الكلام الخفي لا يفْهم، والياء زائدة.

(149) ضغا الكلب: صوت وصاح إذا ضرب، وقيل: مد صوته كأنه يتضرع عند الضرب. انظر ابن منظور، لسان العرب: (ضغا).

(150) انظر في ذلك كله المصادر في الحاشية رقم (33).

(151) انظر مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (بوز)، وما سيأتي من حديث.

(152) المصدر السابق: (غنن)، وانظر ابن سيده، المخصص 359:2، والصعيدي، الإفصاح: 453.

(153) ابن منظور، لسان العرب: (غنن)، وانظر مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (غنن).

(154) في تاج العروس: (غنن): "الرياح".

(155) معجم مقاييس اللغة: (غنن) في وصف الوادي الأغن.

(156) ابن منظور، لسان العرب: (غرد).

(157) وغن الوادي، وأغن الوادي. انظر المصدر السابق: (غنن)، والبغدادي، حاشية على شرح بانت سعاد 370:1، وفيه أيضاً: "واد مغَن".

(158) ابن منظور، لسان العرب: (غنن)، وانظر البغدادي، حاشية على شرح بانت سعاد 370:1.

(159) ابن منظور، لسان العرب: (غنن)، وانظر مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (غنن).

(160) انظر ابن منظور، لسان العرب: (غنن)، وابن سيده، المخصص 359:2، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (غنن).

(161) أغَن الذباب: صوت، والاسم: الغُنان.

(162) راجع المعاني الكبير 609:2.

(163) انظر الجاحظ، الحيوان 316:3، وابن قتيبة، المعاني الكبير 608:2.

(164) الجاحظ، الحيوان 316:3.

(165) المصدر السابق 390:3. ومكان الحذف: "الدبر، والنحل"، وقد استثنيناهما - كما مر – من أجناس الذبان.

(166) أي الذباب الذي يتخلّق منها. انظر ما قيل عن ذلك في المصدر السابق 356:3 – 359.

(167) أما النعر فقد مر، وسيرد في شعر ابن مقبل أنه من ذبان الرياض، وأما الشعراء فسيأتي الحديث عنها، وهي من ذبان الرياض فقد ذكرها أبو حنيفة الدينوري (النبات: 48) في "باب الرعي والمراعي" مستشهداً على ذلك بقول أحد الرجاز.

(168) أي قول الشاعر: "ذباب" أو "ذبان".

(169) وكان خلف عليها بعد موت أبيه، ففرق بينهما الإسلام. انظر ابن حبيب، المحبر: 325 – 326.

(170) الوسمي: مطر أول الربيع.

(171) ابن مقبل، ديوانه: 23.

(172) طرقتْ: أتت ليلاً. وشحط الفؤاد: بعد.

(173) ريا روضة وسمية: أي رائحة روضة أصابها الوسمي، وهو مطر أول الربيع. وبذابلها: أي بنباتها الذابل.

(174) المصدر السابق: 28.

(175) غيث مريع: تُمرع عنه الأرض، أي تخصب. ولم يجدع نباته: أي لم ينقطع عنه المطر فيجدع كما يجدع الصبي إذا لم يرو من اللبن، فيسوء غذاؤه ويهزل. ويقال: جدع القحطُ النباتَ، إذا لم يزك لانقطاع الغيث عنه. ولته: أي جاءت بعده. والأهاليل: الأمطار، ولا واحد لها. والسماكان: نجمان نيران، أحدهما السماك الأعزل وله نَوء، والآخر السماك الرامح ولا نَوء له، وربما نسبوا النوء إلى السماكين على إرادة أحدهما كما فعل ابن مقبل.

(176) بسرتُ النبات: إذا رعيته غضاً، وكنت أول من رعاه.

(177) المثقب، ديوان شعره: 182. وانظر رواية البيت: "على الوكُون" في ابن دريد، جمهرة اللغة: 222، وابن منظور، لسان العرب: (وكك).

(178) الوكُون: مفرده الوكْن، وهو عشّ الطائر، قيل: في جبل أو جدار.

(179) انظر هذه الرواية في: ابن دريد، جمهرة اللغة: 222، وابن منظور، لسان العرب: (وكك).

(180) جمهرة اللغة: 222، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (وكك).

(181) ابن منظور، لسان العرب: (هدر).

(182) انظر المصدر السابق: (هدر) معنى آخر للهدير، و(شقق) في معنى: "الشقْشقة" أنها الهدير.

(183) انظر الجاحظ، الحيوان 388:3، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(184) الأنباري، شرح المفضليات: 584 – 585.

(185) الرنيم والترنيم: تطريب الصوت، وترنم المغنّي: رجع صوته، وسيأتي.

(186) ابن منظور، لسان العرب: (ذبب)، وانظر الأزهري، تهذيب اللغة: (ذبب).

(187) ابن أحمر، شعره: 159.

(188) تفقأت السحابة عن مائها: تشققت وتبعجت. والقلع: السحاب العظام. والسواري: جمع سارية، وهي السحابة تنشأ ليلاً. وجن الخازباز: يعني في هزجه وطيرانه، قيل: جنون الذباب: كثرة ترنمه في طيرانه، وقيل: جن الذباب، أي كثر صوته هذا على معنى الذباب، وأما قول من قال: جن النبت جنوناً، فمعناه أنه طالَ والتَف وخرج زهره (ابن منظور، لسان العرب: جنن، وانظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 51). والخازباز: قيل فيه إنه ذباب يكون في الروض، وقيل: هو حكاية لصوت الذباب (أو هو صوت الذباب) فسماه الشاعر به، وقيل: هو نبت. ابن منظور، لسان العرب: (خوز)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (بوز).

(189) السكّري، شرح أشعار الهذليين: 1091 - 1092، وانظر حديثه عن المرعى والنبات والسحاب في الأبيات (4-7).

(190) مرتَع: حيث تَرتَع وتَرعى. والقُمر: حمر بيض البطون. والأوابد: المتوحشة. والديم: جمع ديمة، وهي المطر الساكن. والعماء: السحاب الرقيق. والغيث: المطر. ومثجم: مقيم.

(191) الخَموش: بفتح الخاء، البعوض، في لغة هذيل، لا واحد لها من لفظها، وقيل: واحدتها خَموشة، وقيل: واحدتها بقة. (انظر ابن سيده، المخصص 359:2، وابن منظور، لسان العرب: خمش، وغي). وذكر أبو حنيفة الدينوري (النبات: 52) الخَموش في باب الرعي والمراعي في حديثه عن أجناس الذبان، ونقله عنه ابن سيده في (المخصص359:2) في باب "من الطير الذباب".

(192) الصهلُ: حدة الصوت مع بحح كالصحل، وقيل: صهل الذباب صهيلاً: هو صوته المتدارك في العشب. والصواهل: جمع الصاهلة، مصدر على فاعلة بمعنى الصهيلُ.

(193) ابن مقبل، ديوانه: 208. وانظر مثالاً آخر في أبي حنيفة، النبات: 50، وابن سيده، المخصص 359:2.

(194) الغيث: أراد به نباتاً نبت عنه. والقُريان: جمع قَرى، وهو مجرى الماء في الروض. ورفه الوبل عنه: كف عنه، والترفيه في الأصل: التنفيس عن الشيء. والوبل: المطر الشديد الضخم القطر. ودجن: أي أظله دجن وغشيه، والدجن: الغيم. وتبطنّت الوادي: دخلت بطنه وجوّلت فيه.

(195) صواهل الذبان: يريد أصوات الذبان وغنّة طيرانها في العشب، وقد مضى تفسيرها في الحاشية رقم (192).

(196) سمط اللآلي: 680.

(197) المصدر السابق: 680.

(198) الصدح: شدة الصوت وحدته، وصدح الرجل: رفع صوته بغناء أو غيره.

(199) انظر جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 306، وتعليقه على البيتين.

(200) ابن مقبل، ديوانه: 220.

(201) النجدة: من النجد وهو العرق. والرشْح: سيلان العرق. والكتن: اللزج.

(202) العازب: الكلأ البعيد المطلب الذي لم يرعه أحد. والرعَد: الكثير الواسع. ورأْد النهار: وقت ارتفاعه واشتداد الحر.

(203) الهزج: السريع الصوت المتدارك صوتُه. والهزج: تدارك الصوت في خفة وسرعة، وقيل: صوت مطْرب، وقيل: صوت فيه بحح.

(204) جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 304.

(205) ليسا في ديوانه، وهما في الجاحظ، الحيوان 389:3، والأول فقط في ابن قتيبة، المعاني الكبير2: 604، والزمخشري، أساس البلاغة: (هزج)، وقد اخترنا روايتهما له لأنها أوضح من رواية الجاحظ، وروايته له هي:

يكلفُها ألا تُخَفض صوتَهـا
أهازيج ذبانٍ على عود عوسجِ

والعوسج: شجر من شجر الشوك.

(206) تكلف الشيء: تجشمه على مشقة. وتخفّض: تسكّن، من الخَفْض وهو الدعة والسكون. والجأش: القلب. والعرفَج: ضرب من النبات سهلي سريع الانقياد، واحدته عرفَجة،

وقيل: هو من شجر الصيف وهو لَين أغبر له ثمرة خَشناء كالحسك، وقيل: العرفَج طيّب الريح أغبر إلى الخضرة، وله زهرة صفراء وليس له حب ولا شَوك. وقيل غير ذلك. وأهازيج: جمع أهزوجة، وقد مضى تفسيرها.

(207) مدى التطريب: غاية ترجيع الصوت. والسحيل: أشد نُهاق الحمار. والنشيج: الصوت يتردد في الصدر. والمحشْرج: الذي يغرغر عند الموت. والبيت في صفة حمار.

(208) انظر ما قيل عن هذا الوقت في التبريزي، شرح المعلقات العشر: 225.

(209) زهير، شعره: 208.

(210) الربيع: نبات الربيع. وبها: أي بتلك المواضع التي ذكرها في بيت سابق. والهزج: الذباب المصوت. والأصهب: الذي خالط لونه حمرة.

(211) عنترة، ديوانه: 132 – 133.

(212) المصدر السابق: 196 – 197.

(213) الأنف: التي لم ترع. والدمن: البعر. والمعلم: المكان المشهور.

(214) جادت عليها: هو من المطر الجود وهو الغزير. والعين: مطر دائم أيام لا يقلع. والثرة: الغزيرة. والحديقة: مثل البستان يستقر فيه الماء وهي الروضة. وكالدرهم: شبه بياض الماء واستدارته حين امتلأت الحديقة منه بالدرهم.

(215) السح: الصب الشديد، والتسكاب مثله. يتصرم: ينقطع.

(216) المترنم: الذي يترنم بالغناء أي يمد صوته ويرجعه، وقيل: الذي يرجع الصوت بينه وبين نفسه، وقيل: الذي يطرب قليلاً قليلاً لا يرفع صوته.

(217) المصدر السابق: 133، وانظر ما قاله جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 305 – 306 عن التشخيص في مشهد الذباب عند عنترة.

(218) انظر الجبوري، الشعر الجاهلي: 229.

(219) عنترة، ديوانه: 197 – 198، وانظر هذه الرواية في الجاحظ، البيان والتبيين 326:3، والجاحظ، الحيوان 127:3، 312.

(220) هزج وتَرنم مضى تفسيرهما.

(221) غَرِداً مضى تفسيره. يسن: يحدد، وسن الشيء: أحده وصقله. والمكب: المنحني على الزناد. والزناد: العود الذي تقدح به النار. والأجذم: المقطوع اليد.

(222) انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 165، والزوزني، شرح المعلّقات السبع: 113، والتبريزي، شرح المعلقات العشر: 220.

(223) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 314.

(224) البغدادي، خزانة الأدب 127:1.

(225) الجاحظ، الحيوان 312:3، وانظر: 310 – 311، وعنترة، ديوانه: 198.

(226) ضيف، العصر الجاهلي: 229.

(227) الجاحظ، الحيوان 312:3.

(228) عنترة، ديوانه: 198.

(229) انظر المصادر في الحاشية رقم (222) – دون الشعر والشعراء – وكذلك العسكري، الصناعتين: 223، 248، وابن منظور، لسان العرب: (قدح)، وابن نباتة المصري، سرح العيون: 321.

(230) انظر عنترة، ديوانه: 198، وطرفة، ديوانه: 37، والجاحظ، البيان والتبيين 326:3.

(231) انظر على سبيل المثال: ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 165، وابن الأنباري: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 315، والعسكري، ديوان المعاني، 148:2. وغيرها كثير.

(232) التبريزي، شرح القصائد العشر: 220.

(233) ابن منظور، لسان العرب: (حكك).

(234) المصدر السابق: (سنن). سن القلم: موضع البري منه.

(235) طَنين الذباب: صوته.

(236) أو الخَرفي بالتحريك: مطر القيظ، ويكون في ثلاثة أشهر من آخر القَيظ وأول الشتاء. المصدر السابق: (خرف). وانظر الحديث الآتي.

(237) راجع الجاحظ، الحيوان 320:3، 321، 351، وأبا حنيفة الدينوري، النبات: 50.

(238) الزجل: الجلَبة ورفْع الصوت، وخُص به التطريب، وقيل: الزجل، رفْع الصوت الطرب.

(239) هماهم: جمع همهمة، والمراد بها هنا الطنين. والهمهمة في اللغة: الصوت الخَفي، وقيل: ترديد الصوت في الصدر. يقال: همهم الرعد: إذا سمعت له دوياً. وهمهم الأسد، وهمهم الرجلُ: إذا لم يبين كلامه.

(240) لا يفتر: لا يسكن ولا ينقطع عن الطنين.

(241) الجاحظ، الحيوان 342:3.

(242) الأعشى، ديوانه: 325.

(243) فيهن: الضمير يعود على الغانيات في بيت سابق. مخروف: يقال، خُرِفَت البهائم (على البناء للمجهول) أصابها مطر الخريف فأنبت لها ما ترعاه، فهي مخروفة. والنواصف: جمع ناصفة، وهي ما اتسع من الوادي. وبغمت الظبية: صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها. وشدن: قوي وترعرع. وأكحل: أسود العينين.

(244) الكناس: بيت الظبي في الشجر يستتر فيه. والتَجت الأصوات: ارتفعت فاختلطت. والطحلة: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد.

(245) القَمع: الواحدة قَمعة، وهو ذباب كبار زرق من ذباب الكلأ التي تُغَني. قيل: يدخل في أُنُوف الدواب ويقع على الإبل والوحش إذا اشتد الحر فَيلْسعها، وقيل: يركب رؤوس الدواب فيؤذيها. انظر ابن سيده، المخصص 358:2، والزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (قمع).

(246) انظر الجاحظ، الحيوان 351:3، وأبا حنيفة الدينوري، النبات: 50، وابن سيده، المخصص 358:2.

(247) انظر الجاحظ، الحيوان 351:3، وأبا حنيفة الدينوري، النبات: 50، وشرح البيت الشاهد لأوس بن حجر فيما يأتي من حواشٍ.

(248) انظر ابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (قمع).

(249) إصلاح المنطق: 42، وانظر الجوهري، الصحاح: (قمع)، وابن سيده، المخصص 358:2، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (قمع).

(250) أوس بن حجر، ديوانه: 57.

(251) المزنة: السحابة، والمطْرة، والجمع مزن. والعفْر من الظباء: التي تعلو بياضها حمرةٌ. والكناس: بيت الظبي في الشجر يستتر فيه. وتقمع: تذب (أي تطرد) عنها القمع، وهو ذباب أزرق. يقول أبو حنيفة (النبات: 50): "أي جاء هذا الغيث حين قوي الحر واستعر الذبان".

(252) انظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 47، وابن سيده، المخصص 358:2، والصعيدي، الإفصاح: 452، والحاشية رقم (143).

(253) العسكري، التلخيص: 658، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (قمع).

(254) انظر ما ذكرناه سابقاً في المتن المتعلّق بالحاشية رقم (146).

(255) ابن مقبل، ديوانه: 81 – 82، وانظر مثالاً آخر على أصوات الذبان من هذا النوع في السكّري، شرح أشعار الهذليين: 1218.

(256) قد قدت للوحش: أي قدت هذا الفرس للوحش لصيده. ونُيذْت بالشيء: إذا رفع لك وأُتيح لقاؤه. والعير: حمار الوحش. والعانة: القطيع من حمر الوحش.

(257) ينفح: يضرب بحافره. والمكنان: شجرة غبراء صغيرة من نبات الربيع. وكتنت جحافله: إذا أكل العير العشب فلصق بها أثر خضرته، ولزج فتلبد. والجحافل: جمع جحفلة، وهي شفة العير هاهنا. والعضرس: نبات فيه رخاوة، لونه إلى السواد، تسود منه جحافل الدواب إذا أكلته. والثجر: المتفرقة، واحدتها ثُجرة.

(258) بعازب النبت: أي بمكان عازب النبت، وهو البعيد الخالي الذي لم يرعه أحد. ورأد النهار: حين يعلو النهار الأكبر حتى يمضي من النهار نحو من خمسه.

(259) الجاحظ، الحيوان 315:3، وانظر الثعالبي، ثمار القلوب: 503. وروى البيت الثاني: "في كل مجتَمِعٍ"، وسيأتي الحديث عنها.

(260) المجمعة: مجلس الاجتماع. والمجمع: يكون اسماً للناس وللموضع الذي يجتمعون فيه. وطَنين الذباب: مضى تفسيره، وهو هنا يضرب المثل به للكلام يستهان ولا يبالى به.

(261) الحيوان 315:3.

(262) ديوان المعاني 149:2.

(263) وهي الرواية التي استشهدنا بها.

(264) انظر الملاحظة السابقة في الحاشية رقم (259).

(265) الوغَى: الصوت، وقيل: الوغَى، أصواتُ النحل والبعوض ونحو ذلك إذا اجتمعت. والأصل في الوغَى: اختلاط الأصوات في الحرب مثل الوعى، ثم كثر ذلك حتى سموا الحرب وغًى، لما فيها من الصوت والجلَبة.

(266) انظر البيت الذي يسبق البيت الشاهد، والذي يصف الشاعر فيه وروده إلى الماء. السكّري، شرح أشعار الهذليين: 1272.

(267) الهياط: كثرة الصوت، وقيل: هو اختلاط الأصوات، وقيل: هو الصياح والمجادلة. وقد وردت هذه الرواية: "وغى" و"هياط" عند كل من: ابن دريد، جمهرة اللغة: 1255، وابن منظور، لسان العرب: (خمش)، (وغي)، وانظر (زيط)، (لغط).

(268) السكّري، شرح أشعار الهذليين: 1272.

(269) الطامي: المرتفع. وأرجاؤه: نواحيه. والزجل: الصوت. والغطاط: ضرب من القَطا.

(270) الخَموش والهياط: مر تفسيرهما. وبجانبيه: أي بجانبي الماء. وأُميم: أراد أُميمة فرخم.

(271) انظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 52، وابن منظور، لسان العرب: (خمش)، (زيط). والزياط: الصياح.

(272) انظر ابن دريد، جمهرة اللغة: 603، وابن سيده، المخصص 359:2؛ وقال ابن منظور، لسان العرب: (وعي، وغي): "قال يعقوب: عينُه بدل من غين وغًى، أو غين وغًى بدل منه، والله أعلم". والوعى: الصوت، وقيل: الوعي والوعى، بالتحريك: الجلَبة والأصوات، وقيل: الأصوات الشديدة، والأصل في "الوغَى" و "الوعى" واحد، وهو الصوت في الحرب.

(273) انظر ابن منظور، لسان العرب: (وعي).

(274) انظر المصدر السابق: (لغط). واللغا: الصوت مثل الوغَى. واللغْطُ واللغَطُ: الأصواتُ المبهمة المختلطة والجلبةُ لا

تُفْهم، وقيل: اللغَطُ، صوت وضجة لا يفْهم معناه، وقيل: هو الكلام الذي لا يبين.

(275) الصحاح: (خمش)، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (خمش)، (وغي).

(276) انظر ابن منظور، لسان العرب: (خمش)، (وغي).

(277) باستثناء الحركة التي أشرنا إليها في بيت عنترة.

(278) تفسيره 90:11، وانظر ابن حجر، فتح الباري 419:11.

(279) انظر القرطبي، تفسيره 90:11.

(280) الجوهري، الصحاح: (ذبب)، وانظر ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذبب).

(281) لسان العرب: (همج).

(282) قيل: كالبعوض.

(283) الهمج: جمع همجة، وقد اختلف في معناه؛ فقيل: الهمج ذباب الروض، وقال ابن الأعرابي: الهمج البعوض والذباب، والهمج، في كلام العرب: أصله البعوض. انظر أبا حنيفة الدينوري، النبات: 51، 52، وابن منظور، لسان العرب: (همج).

(284) انظر المتن المتعلق بالحاشية رقم (281).

(285) لسان العرب: (همج).

(286) المصدر السابق: (همج).

(287) المصدر السابق: (همج).

(288) انظر المصدر السابق: (حمق).

(289) لحارث بن حلزة، ديوانه: 62.

(290) رقح: أصلح المال. ويعيث: يفسد.

(291) 0لسكّري، شرح أشعار الهذليين: 136.

(292) موشحةً: يعني ظبيةً. والطرتان: الخطان عند الجنْبين، وقيل: الطرتان، عند منْقَطَع لونِ الظهرِ من لون البطن، وإنما شبهها بالظبية، فيقول: قد وشحتْ ببياض من ذلك الموضع. والهميج: من الظباء، الذي له جدتان على ظهره سوى لونه، ولا يكون ذلك إلاّ في الأدم منها، يعني البيض. وقيل: الهميج، التي أصابها وجع أو غَم، فَذَبل لذلك وجهها. وقيل: هميج، ضعيفة النفس.

(293) المخصص 359:2.

(294) لسان العرب: (همج).

(295) حميد بن ثور، ديوانه: 48.

(296) هميج: مر تفسيره. والخاذل: الظبي تخلّف عن القطيع. وتعلل: تتشاغل، يعني الظبية. ونتيج ثلاث: يعني الولد، والولد نتيج ثلاث بغيض.

(297) وهذا يفسره رواية ابن دريد (جمهرة اللغة: 820)، والبكري (معجم ما استعجم: 1002) إذ روياه: "تجري عليه".

(298) لأن معنى "تجري" تسير. انظر المعنى الذي أفادته "على" في هذا الموضع في: المالقي، رصف المباني: 433 – 434، وحسن، النحو الوافي 470:2، والهلالي، الحروف العاملة في القرآن: 327، 534.

(299) استَن الفرس في المضمار: إذا جرى في نشاطه على سنَنه في جهة واحدة، والاستنان: النشاط، وقيل: استَن الفرس: عدا لمرحه ونشاطه شَوطاً أو شوطين ولا راكب عليه. وقد فسر ابن منظور هيئة جريه عندما قال استن الفرس: قمص، ومعنى قمص الفرس هو أن يرفع يديه ويطرحهما معاً ويعجِن برجليه. انظر لسان العرب: (سنن)، (قمص).

(300) أوس بن حجر، ديوانه: 69.

(301) عُمازة: بئر معروفة بين البصرة والبحرين. وقال قوم: بل هي عين دون هجر. (البكري، معجم ما استعجم: 1002). وحباب الماء: نُفاخاتُه وفقاقيعه التي تَطْفُو، وقيل: موجه الذي يتبع بعضه بعضاً، وقيل: الطرائق التي في الماء كأنها الوشْي. والزخارف: ذُباب صغار ذاتُ قوائم أربع تطير على الماء. ابن سيده، المخصص 360:2.

(302) المعري، رسالة الصاهل والشاحج: 344، وانظر جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: 304.

(303) المتلمس، ديوان شعره: 122 – 123.

(304) هلُم: تعال. وإليها: إلى اليمامة. والمنجنون: الدولاب التي يستقى عليها. وتكدس: يركب بعضها بعضاً في الدوران، ويستعمل في سير الدواب وغيرها.

(305) العرض: واد من أودية اليمامة. والزنابير: بدل من الذباب، وذباب الروض قد تُسمى الزنابير، وقيل: هو ضرب من الذباب لساع. وانظر ما ذكرناه سابقاً في حديثنا عن الدبر. والأزرق: إشارة إلى جنسٍ آخر من الذباب غير الأول، وهو ما كان أخضر ضخماً، يكون في الرياض. والمتلمس: الطالب، ويقال: إنه سمي المتلمس بهذا البيت.

(306) انظر الجاحظ، الحيوان 391:3، وابن قتيبة، المعاني الكبير 604:2، وابن دريد، الاشتقاق: 317، والمرزوقي، شرح ديوان الحماسة 662:1.

(307) انظر ابن دريد، جمهرة اللغة: 747، والبكري، سمط اللآلي: 250، والتبريزي، شرح ديوان الحماسة 458:1.

(308) المعاني الكبير 604:2.

(309) في النص "ولما"، والصواب سقوط الواو .

(310) جمهرة اللغة: 747.

(311) شرح ديوان الحماسة 662:1.

(312) شرح ديوان الحماسة 458:1.

(313) انظر هذه الرواية في: ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 111، والأصفهاني، الأغاني 216:24، والمرزوقي، شرح ديوان الحماسة 662:1، والتبريزي، شرح ديوان الحماسة

458:1، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (عرض).

(314) القاموس المحيط: (لمس).

(315) لسان العرب: (جنن)، وانظر الحاشية رقم (188).

(316) انظر قوله تعالى: (ضعفَ الطالِب والمطْلُوب) [الحج، الآية: 73] إذ قيل في تفسيرها: إن الطالب: الآلهة، والمطلوب: الذباب. الطبري، تفسيره 141:17، والقرطبي، تفسيره 90:11، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم 235:3.

(317) وأحقرها. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 235:3.

(318) الحج، الآية: 73.

(319) وكذلك منها مهانته واستقذاره. القرطبي، تفسيره 90:11.

(320) انظر امرأ القيس، ديوانه: 97 يشبه المرء في ضعفه إزاء الموت المغيب بهذا المخلوق الضعيف.

(321) لصغَره، ولذلك كان التحدي في قوله تعالى للكفّار: (إن الذين تَدعون من دون الله لن يخْلُقُوا ذُباباً ولو اجتَمعوا له) [الحج، الآية: 73]. وانظر الطبري، تفسيره 141:17.

(322) الحيوان 232:7.

(323) ابن مقبل، ديوانه: 185.

(324) مأقي العين: مؤخّرها. والصناع: المرأة الحاذقة الماهرة بعمل اليدين تُسوي الأشافي وتخرز الدلاء وتَفْريها. والطباب: جمع طبابة، وهي الجلدة التي تجعل على طرفي الجلد في القربة والسقاء وتسوى وتخرز.

(325) الطرف: إطباق الجفن على الجفن، أو تحريك الجفون في النظر. والجمان: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ، فارسي معرب، واحدته جمانة.

(326) قال أبو حنيفة (النبات: 48): "وقد تَعرض النعر للخيل"، وانظر الحاشية رقم (143).

(327) للجاحظ انظر 232:7.

(328) ابن مقبل، ديوانه: 186.

(329) لبانه: صدره. وأصعقتها: أي قتلتها، أي قتلها صهيل هذا الفرس، والصعقُ: يكون موتاً وغَشْياً. وصواهله: أي صهيل الفرس، جمع صاهلة، مصدر على فاعلة بمعنى الصهيل، وقد مضى الحديث عنه.

(330) فريس، أي مقتول، يعني الذباب. ومغشي عليه: أي الذباب غشي عليه بصهيل الفرس. والخيوطة: الخيوط، جمع خيط، زادوا الهاء لتأنيث الجمع. والماري: الكساء الذي له خيوطة مرسلة. ويقال: الماري صائد القطا، شبهها (أي الذباب) بالخيوط التي تكون في شبكته. والقطاة يقال لها: مارية.

(331) النثير للدواب والإبل: كالعطاس للناس، وذلك إذا طرحت من أنفها الأذى.

(332) ابن مقبل، ديوانه: 26.

(333) يقص الذباب: أي يقتله. والنثير: مضى تفسيره. والنقع: الغبار الذي يثور من ركض الخيل. والأظراب: جمع ظَرِب، وهو الرابية الصغيرة.

(334) المرقّش الأكبر أخباره وشعره: 883.

(335) المحالة: الشديدة المحال، والمحال: فقار الصلب. والمعاقم: الفصوص، وهي المفاصل. وعلى مطوائها: أي كانت تمطّت فخلقت على ذلك، كناية عن شدتها وطولها.

(336) ابن مقبل، ديوانه: 77، وانظر البكري، سمط اللالي: 832.

(337) الأفلاء: جمع فَلُو بتشديد الواو، وهو المهر الصغير إذا بلغ السنة، وفُلي عن أمه أي فُطم. والوجيه: اسم فحل سابق من خيل العرب. وصام الضحى: إذا اعتدل وسكن واشتد فيه الحر. وتقدع الذبان بالنخر: أي تكفّه وتطرده بأفواهها ونخيرها، والنخر: جمع نُخْرة، وهي بمعنى الأنف، أو بمعنى النخير، وهو صوتُ الأنف.

(338) الشعراء: "ذُبابةٌ يقال هي التي لها إبرة، وقيل: الشعراء ذباب يلسع الحمار فيدور، وقيل: الشعراء والشعيراء ذباب أزرق يصيب الدواب. قال أبو حنيفة: الشعراء نوعان: للكلب شعراء معروفة، وللإبل شعراء؛ فأما شعراء الكلب فإنها إلى الزرقة والحمرة ولا تمس شيئاً غير الكلب، وأما شَعراء الإبل فتضرب إلى الصفْرة، وهي أضخم من شعراء الكلب، ولها أجنحة، وهي زغْباء تحت الأجنحة؛ قال: وربما كثرت في النعم حتى لا يقدر أهل الإبل على أن يحتلبوا بالنهار ولا أن يركبوا منها شيئاً معها فيتركون ذلك إلى الليل، وهي تلسع الإبل في مراق الضلوع وما حولها وما تحت الذنب والبطن والإبطين، وليس يتّقونها بشيء إذا كان ذلك إلاّ بالقَطران، وهي تطير على الإبل حتى تسمع لصوتها دوياً...". وقيل غير ذلك. ابن منظور، لسان العرب: (شعر).

(339) المصدر السابق: (شعر).

(340) الشماخ، ديوانه: 276، وانظر مثالاً آخر في السكّري، شرح أشعار الهذليين: 1292، وجمعة، الحيوان في الشعر الجاهلي: 81 في تعليقه على بيت أسامة بن الحارث الهذلي.

(341) تذب: تطرد. واللبان: الصدر، وقيل: وسطه، وقيل: ما بين الثديين، وقيل: هو الصدر من ذي الحافر خاصة، فعلى هذا يكون ذكره هنا استعارة. والأقراب: الخواصر، مفردها قُرب، وللناقة خاصرتان، وإنما جمع فقال: "أقراب" لسعتهما. وزهاليل: ملس، جمع زهلول.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ط1، دار الفكر، بيروت، 1418هـ.

ابن الأنباري، محمد بن القاسم، الأضداد، مطبعة بيل، ليدن، 1881م.

- وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، 1993م، ط5، دار المعارف، القاهرة.

ابن حبيب، محمد بن حبيب، المحبر، تصحيح إيلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري، تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، 1996م، دار الفكر، بيروت.

ابن دريد، محمد بن الحسن، الاشتقاق، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، 1958م، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- وجمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، 1987م-1988م، ط1، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن السكّيت، يعقوب بن إسحاق، إصلاح المنطق، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، 1987م، ط4، دار المعارف، القاهرة.

ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991م.

ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، تصحيح مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي، 1996م، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ومؤسسة التراث العربي، بيروت.

ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، 1999م، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- والشعر والشعراء، تحقيق عمر الطباع، 1997م، ط1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.
- والمعاني الكبير في أبيات المعاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

ابن مقْبل، ديوانه، تحقيق عزة حسن، 1995م، دار الشرق العربي، بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1955م – 1992م.

ابن نُباتة، محمد بن شمس الدين محمد، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1986م، المكتبة العصرية، بيروت.

ابن يعيش، يعيش بن علي، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.

أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود، النبات، تحقيق برنهارد لفين، 1974م، دار فرانز شتاينر، فيسبادن.

الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م – 1967م.

الأسد، ناصرالدين، 1968م، القيان والغناء في العصر الجاهلي، ط2، دار المعارف، القاهرة.

الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني، شرحه سمير جابر وآخرون، 1992م، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.

الأعشى الكبير، ديوانه، شرح وتعليق محمد محمد حسين، ط7، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م.

امرؤالقيس، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1990م.

الأنباري، القاسم بن محمد، شرح ديوان المفضليات، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2000م.

أوس بن حجر، ديوانه، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، 1979م، ط3، دار صادر، بيروت.

البغدادي، عبدالقادر بن عمر، حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام، تحقيق نظيف محرم خواجة، ج1، 1980م، ج2، 1990م، دار فرانز شتاينر، فيسبادن.

- وخزانة الأدب، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، 1979م-1986م، ط1- 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ومكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض.

البكري، عبدالله بن عبدالعزيز، سمط اللآلي، تحقيق عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، 1984م، ط2، دار الحديث، بيروت.

- ومعجم ما استعجم، تحقيق وضبط وشرح مصطفى السقّا، عالم الكتب، بيروت.

التبريزي، يحيى بن علي، تهذيب إصلاح المنطق، تحقيق فخرالدين قباوة، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م.

- وشرح ديوان الحماسة لأبي تمام، كتب حواشيه غريد الشيخ، 2000م، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- وشرح المعلّقات العشر، تحقيق فخرالدين قباوة، 1997م، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق.

الثعالبي، عبدالملك بن محمد، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1985م، دار المعارف، القاهرة.

الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، 1948م، دار الجيل، بيروت.

- والحيوان، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، 1969م، ط3، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت.

الجبوري، يحيى، 1997م، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت.

جمعة، حسين، 1989م، الحيوان في الشعر الجاهلي، ط1، دار

دانية، دمشق.
- ومشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، ط1، دار دانية، دمشق، 1990م.

الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، 1998م، ط1، دار الفكر، بيروت.

الحارث بن حلزة، ديوانه، إعداد طلال حرب، 1993م، ط1، الدار العالمية، بيروت.

حسن، عباس، 1966م، النحو الوافي، ط3، دار المعارف، القاهرة.

الحطيئة، ديوانه، تحقيق نعمان محمد أمين طه، 1987م، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة.

حميد بن ثور الهلالي، ديوانه، صنعة عبدالعزيز الميمني، 1965م، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

الحوفي، أحمد محمد، 1954م، المرأة في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر وطبعتها، القاهرة.

الزبيدي، محمد بن الحسن، لحن العوام، تحقيق رمضان عبدالتواب، 1964م، ط1، الكمالية.

الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق عبدالرحيم محمود، 1982م، دار المعرفة، بيروت.
- والفائق في غريب الحديث، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
- والمفصل في علم العربية، ط2، دار الجيل، بيروت.

زهير بن أبي سلمى، شعره، تحقيق فخرالدين قباوة، 1980م، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلّقات السبع، ط5، مكتبة المعارف، بيروت، 1985م.

السكّري، الحسن بن الحسين، شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبدالستّار أحمد فراج، 1965م، مكتبة دار العروبة، القاهرة.

سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، 1966م، دار الجيل، بيروت.

الشريف المرتضى، علي بن الحسين، أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1967م، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت.

الشماخ بن ضرار الذبياني، ديوانه، تحقيق وشرح صلاح الدين الهادي، 1968م، دار المعارف، القاهرة.

الصعيدي، عبدالفتاح، وحسين يوسف موسى، الإفصاح في فقه اللغة، ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1929م.

ضيف، شوقي، 1976م، العصر الجاهلي، ط3، دار المعارف، القاهرة.

الطبري، محمد بن جرير، تفسيره، ط1، المطبعة الأميرية، بولاق، 1328هـ – 1329هـ.

طرفة بن العبد، ديوانه، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقّال، 2000م، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ودائرة الثقافة والفنون، دولة البحرين.

طفيل الغنوي، ديوانه، تحقيق حسان فلاح أوغلي، 1997م، ط1، دار صادر، بيروت.

العسكري، الحسن بن عبدالله، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق عزة حسن، 1969م، مجمع اللغة العربية، دمشق.
- وديوان المعاني، مكتبة القدسي، القاهرة.
- وكتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م.

عمرو بن أحمر الباهلي، شعره، جمع وتحقيق حسين عطوان، مجمع اللغة العربية، دمشق.

عنترة العبسي، ديوانه، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، 1983م، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م.

القرطبي، محمد بن أحمد، تفسيره، علّق عليه عرفان العشّا، دار الفكر، بيروت، 1998م.

لبيد بن ربيعة العامري، شرح ديوانه، تحقيق إحسان عباس، 1962م، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.

المالقي، أبو جعفر، أحمد بن عبدالنور، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الخراط، 1985م، ط2، دار القلم، دمشق.

المتلمس الضبعي، ديوان شعره، تحقيق حسن كامل الصيرفي، 1970م، معهد المخطوطات العربية، القاهرة.

المثقّب العبدي، ديوان شعره، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، 1971م، معهد المخطوطات العربية، القاهرة.

مجمع اللغة العربية (القاهرة)، المعجم الوسيط، ط3، دار عمران، القاهرة، 1985م.

مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق علي شيري، 1994م، دار الفكر، بيروت.

المرزوقي، أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون، 1991م، ط1، دار الجيل، بيروت.

المرقش الأكبر، المرقش الأكبر أخباره وشعره (القسم الثاني)، جمع نوري حمودي القيسي، 1970م، مجلة العرب، الجزء العاشر، السنة الرابعة، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، حزيران – تموز.

المعري، أبو العلاء، أحمد بن عبدالله، رسالة الصاهل والشاحج، تحقيق عائشة عبدالرحمن، 1984م، ط2، دار المعارف، القاهرة.

الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم، ط2، دار الجيل، بيروت، 1987م.
النابغة الذبياني، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1977م.
النحاس، محمد بن إسماعيل، شرح ديوان امرىء القيس، تحقيق عمر الفجاوي، 2002م، وزارة الثقافة، عمان.
النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1999م.
النويري، أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1954م.
الهلالي، هادي عطية مطر، 1986م، الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، ط1، عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، بيروت.

Al-Thubab in Pre-Islamic (jahili) Poetry
A Living Image

*Leila T. Al-Umari**

ABSTRACT

The study addresses the definition of Al-Thubab in the language, a definition that elucidates its meaning and type according to the linguists as a black flying insect which is present in houses, and which falls in dishes and food. Al-Thubban type is distinct from other types with which it is associated such as bees, wasps and other types of zanabir and butterflies.

As an elaboration of the definition the study deals with the differences among linguists and literary scholars relating to its singular and plural form- a difference that is rooted in their reference to the principles of grammar, or to practical manifestations relating to its behavior in life. To sum up their position "thubab ar" is singular, and its plural form denoting a few flies is "athibba" and denoting numerous flies "thibban".

The researcher in her study of Al-Thubab in pre-Islamic poetry sheds light on the Arabs' perception of its sound. They derived their description of it from the image in their minds of the sound of a drunken person, where wine had affected his behavior and appearance; based on this image they derived many sounds for the Thubab. It became evident to the researcher through the study that the Thubab multiplies and produces sounds expressing happiness due to the beauty of the location, and its sense of the warmth of the climate, which are two basic factors that propel Al-Thubab to sing in its flying in a chanting and warbling manner, and to express its happiness and joviality- in that state- through its varied flying movements. Nevertheless, an abundance of Thubab may be a source of irritation to some animals due to their boisterousness, and also due to their intense sting of those animals, which may force them to expel them, or to kill them in a manner manifesting the weakness and lack of ability of the fly.

Keywords: Al-Thubab, Its soUnd, Singing, Motion, Joviality, Activity, Weakness.

* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Hashemite University, Zarqa, Jordan. Received on 20/4/2005 and Accepted for Publication on 7/8/2006.

(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)
(7)
(8)
(9)
(10)
(11)
(12)

(14)
(15)
(16)
(17)
(18)
(19)
(20)
(21)
(22)
(23)
(24)
(25)
(26)
(27)
(28)
(29)
(30)
(31)
(32)
(33)
(34)
(35)
(36)
(37)
(38)
(39)
(40)
(41)
(42)
(43)
(44)
(45)
(46)
(47)
(48)
(49)
(50)
(51)
(52)
(53)
(54)

(55)
(56)
(57)
(58)
(59)
(60)
(61)
(62)
(63)
(64)
(65)
(66)
(67)
(68)
(69)
(70)
(71)
(72)
(73)
(74)
(75)
(76)
(77)
(78)
(79)
(80)
(81)
(82)
(83)
(84)
(85)
(86)
(87)
(88)
(89)
(90)
(91)
(92)
(93)
(94)
(95)
(96)
(97)
(98)
(99)
(100)
(101)
(102)
(103)
(104)
(105)
(106)
(107)
(108)
(109)
(110)
(111)
(112)

([113])
([114])
([115])
([116])
([117])
([118])
([119])
([120])
([121])
([122])
([123])
([124])
([125])
([126])
([127])
([128])
([129])
([130])
([131])
([132])
([133])
([134])
([135])
([136])
([137])
([138])
([139])
([140])
([141])
([142])
([143])
([144])
([145])
([146])
([147])
([148])
([149])
([150])
([151])
([152])
([153])
([154])
([155])
([156])
([157])
([158])
([159])
([160])
([161])
([162])
([163])
([164])
([165])
([166])
([167])
([168])
([169])
([170])

(171)
(172)
(173)
(174)
(175)
(176)
(177)
(178)
((179)
(180)
(181)
(182)
(183)
(184)
(185)
(186)
(187)
(188)
(189)
(190)
(191)
(192)
(193)
(194)
(195)
(196)
(197)
(198)
(199)
(200)
(201)
(202)
(203)
(204)
(205)
(206)
(207)
(208)
(209)
(210)
(211)
(212)
(213)
(214)
(215)
(216)
(217)
(218)
(219)
(220)
(221)
(222)
(223)
(224)
(225)
(226)
(227)

([228])
([229])
([230])
([231])
([232])
([233])
([234])
([235])
([236])
([237])
([238])
([239])
([240])
([241])
([242])
([243])
([244])
([245])
([246])
([247])
([248])
([249])
([250])
([251])
([252])
([253])
([254])
([255])
([256])
([257])
([258])
([259])
([260])
([261])
([262])
([263])
([264])
([265])
([266])
([267])
([268])
([269])
([270])
([271])
([272])
([273])
([274])
([275])
([276])
([277])
([278])
([279])
([280])
([281])
([282])
([283])
([284])
([285])

(286)
(287)
(288)
(289)
(290)
(291)
(292)
(293)
(294)
(295)
(296)
(297)
(298)
(299)
(300)
(301)
(302)
(303)
(304)
(305)
(306)
(307)
(308)
(309)
(310)
(311)
(312)
(313)
(314)
(315)
(316)
(317)
(318)
(319)
(320)
(321)
(322)
(323)
(324)
(325)
(326)
(327)
(328)
(329)
(330)
(331)
(332)
(333)
(334)
(335)
(336)
(337)
(338)
(339)
(340)
(341)